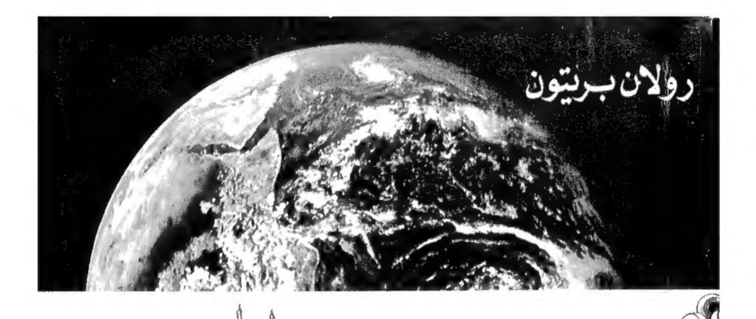
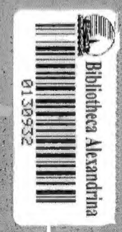


رولان بريتون



جُغرافيا الحضارات





منشورات عويدات
بيروت - باريس

جُغرافيا الحضَارات

رولان بريتون

جُغرافيا الحضَارات

تعريب
الدكتور خليل أحمد خليل

منشورات عويدات
بيروت - باريس

الطبعة الأولى 1993



في عالم لا يني يتبدّل ويتغيّر ، يزداد الإنسانُ المعاصرُ حاجةً إلى معرفة الحاضر واستشراف ملامح المستقبل . وهذه الحاجة إلى العلم كانت الشاغل الدائم لعقول البشر ، وقد اصطلح أجدادُنا على تسميتها في ذروة الحضـارة العربيّة ـ الإسلاميّة بـ « علم الآفـاق » . فهل نعـرفُ عالمنـا الحاضـر بشكل كافٍ ؟ وما السبيـل العقليّ إلى معرفته بشكل أفضل ؟

هذا ما تطمح « سلسلة عـام 2000 » التي بدأت منشـورات عويـدات بإصدارها ، إلى بلورته وتطويره في معرض أفكار وبانوراما رؤى جديدة للعالم الحاضر ـ المقبل الذي يزداد بدوره تفاعلاً وتشابكاً في المستوى الحضاري ، حتى لكأن الأنواع البشرية تقتربُ أكثر فأكثر من دوحة الجنس العقلاني ، الذي كان جذرها منذ آلاف السنين ، وبات اليوم بمثابة مستقبلها المشترك .

إنّ الرابط الحضاري الإنساني الراهن يرشدنا يوماً بعد يـوم إلى وحدة المعمورة واندماج المقيمين فيها ؛ كما يدلّنـا في عدّة مستويات إلى التقارب الثقافي والتماسك الحضاري والتفاعل النفسي والتعاون الاقتصادي والتفـاهم الاجتماعي المعرفي ، بين شعوبٍ وأمم طالما تباعدت بالحروب وتصالحت في السلام والتعايش . وما التقدّم الحضاري الإنساني المشترك سوى واحدٍ من المُشيرات الكبرى إلى إمكـان ولادة حالـة عالميّـة جديـدة . ولذا ، ستـأخذ « سلسلة عام 2000 » على عاتقها مهمّتين متكاملتين : أولاهما مدّ القـارىء العربي بما ينتجه العقل العلمي النقدّي ، من رؤية لحـاضر العـالم العربي والإسلامي ومستقبله في مشارف الألف الثالث على صعيد الاقتصاد والسياسة والايديولوجيات وقضايا عصرنا الكبرى ؛ وثانيتهما تزويده بنصوص ريـادية ،

معرّبة ، مسبوقة بمقدّمة نقدية تحلّل وتكشفُ جوانب النص ، بما يجعل التعريب كتابة إبداعية ، لا ترجمة عاديّة .

في هذا السّياق يندرج ، مثلاً ، الكتاب الذي وضعه رولان بريتون : « جغرافيا الحضارات » ، والذي سيليه في النسق نفسه عدد من الكتب المتخصصة في حضارات العالم الكبرى ، وفي مقدّمتها « الحضارة العربية » ، فضلاً عن حضارات جديدة ، كالحضارة الأميركيّة ، وحضارات عريقة متجدّدة (جنوب شرق آسيا) الخ .

إلّا أن السلسلة ستُعنى في الوقت نفسه بقضايا العالم الراهنة والمقبلة ، وأولها القضية الاقتصادية والسكانية والاجتماعية والتربوية ، وصولاً إلى القضايا الفكريّة المحض .

كما أنّها ستُعنى بنشر أبحاث عربية متخصّصة ، تنسجم مع هدف السلسلة وحجمها . ولتحقيق ذلك ، سيتولّى الإشراف على هذه السلسلة فريق من المعربين والمفكرين ، يعتني بقراءة النصوص والتقديم لها ، ومراجعتها ، وإخراجها للقارىء على أفضل وجه ، وبأقل كلفة ممكنة .

وبقدر ما يتوسع أفق الترابط الحضاري بين أهل الأرض ، تحتاج البشريّة إلى قراءات متجدّدة ، وناقدة ، تعرض وتقوّم وتستطلع ما يجري وما يمكن أن يحدث . والغاية واحدة هي تقديم ثقافة عاقلة ومعرفة عالمة لجيلٍ بشريّ يبحث عن تحقيق ذاته في هويّة حضارية وفي بوتقة علميّة طالما شغلت الآراء واستنفرت البحّاثة والرحّالة .

هل من طريق آخر غير سبيل النّقد المعرفي لولوج أبواب المستقبل بثقة ؟ هذه السلسلة ستحاول الإجابة عن هذا السؤال ، ولكنْ بأصوات متعدّدة وفي مستويات متنوّعة .

الناشر

تقديـــم

هل يمكنُ لكتابٍ متواضع الحجم أنْ يتناول موضوعة كبرى ، كجغرافيا الحضارات ، وأنْ يفي بالغاية التي يرجوها القارىء ، وهي فهم البنية الحضارية لعالم اليومِ والغد ؟ هذا ما يراهن عليه ، بموضوعيّة كتابُ رولان بريتون ، الذي عرّبناه تلبيةً لحاجةٍ ملحّة في ثقافتنا العربيّة . وهو بذاته مدخلٌ دقيق إلى تاريخيّة الحضارات من بابها الجغرافيّ ، إذْ لا تاريخ ، لا وجود تاريخي ، بلا هذه الصور الدقيقة لتقاسيم الجغرافيا البشرية ، التي دأبَ أسلافنا على إبرازها (مصادر الجغرافيا البشرية عند العرب والمسلمين ، لأندريه ميكيل ، مثلاً) ؛ ولكن الصورة لم تكتمل ، لدرجة أنّنا بتنا نتساءل : أين موقعنا الحضاري العربي الإسلامي ، بالمقارنة مع الحضارات الكبرى الأخرى ، التي ادّعى الغرب « المسيحي » اختصارها في « حضارته » دون سواها ؟

هذا الكتابُ يشكّل مقروئيّة صحيحة ، على تواضعها وربما بسبب من تواضع المؤلّف الاختصاصي على تقديم مادة غنيّة لمسألة عامّة لا تزال تشغل الألباب ، وقد تزداد إثارةً لاهتمامات القرّاء العرب في مطلع الألف الثالث . وإننا إذْ نقدّمه في صيغته المعرّبة هذه ، إنما نسعى إلى شراكةٍ في الوعي ، حدودها مدى تحوّل المعرّب مؤلفاً مشاركاً ، ومدى حضور الكتاب المعرّب في ذهن القارىء ، الباحث عن حقيقة لم تتوقّف عن التحقّق والحدوث والتكوُّن .

فالكتاب ، أيُّ كتاب ، مهما تناهى بين دفّتين ، وحاول واضعُه أنْ يُجدّده في الزمان وفي الحجم وفي مدى المعلومات ، يظلّ يطرح نفسه كمسألة بحاجة إلى تدقيق . وليس من قبيل المصادفة أن يبدأ علم المعرفة من سؤال أساسي : كيف نقرأ كتاباً ؟ أي بأية عينٍ نقرأه ؟ أبعين الصديق الذي يصدّق كل ما جاء

فيه؟ أم بعين العدو الذي يحتاط ويتحفَّظ وينتقد؟ لا شك في أنَّ وراء كل كتاب عقلاً يحاور عقولاً . لكنَّه يبدو عقلاً صامتاً ، مكتوباً . وكتاب « جغرافيا الحضارات » يطمح واضعه لأن يكون أبجديَّة حضارات ، وبالتالي لا بد من تفكيك الأبجدية حرفاً حرفاً ، ومن تطوير موضوعاته موضوعةً موضوعةً ؛ وهنا ننتقل إلى أطلس حضاري كبير لا تعود قراءته ممكنة دون استناد إلى تاريخ حضاري إنساني مفصَّل .

والحال ، فإن هذا الكتاب الذي تصدره « دار عويدات الدولية في سلسلة عام 2000 » هو مفتاح سلسلةٍ تطمح إلى تناول الحضارات الكبرى في العالم ، وفي مقدّمتها الحضارة العربية . فماذا عن هذا الكتاب ـ المفتاح ؟

واضعه ، أندريه بريتون متعدّد الاختصاصات والاهتمامات ؛ فهو جغرافيّ ـ مؤرِّخ . وهذا الأمر يضعنا مجدَّداً على عتبة الوعي العلمي لتلازم الجغرافيا والتاريخ . وهو فوق ذلك أستاذ أبحاث في مركز البحوث والدراسات الإناسيَّة (الأنثروبولوجيَّة) . وإذا تواضعنا على أن الانثروبولوجيا المعاصرة هي التسمية المستحدثة للفلسفة الإنسانية ، التي كانت تُدعى أم العلوم ، فإن هويّة المؤلّف تزداد وضوحاً في خيالنا : فيلسوف ـ جغرافيّ ـ مؤرّخ . فهل هذا كافٍ ، على صعيد الاختصاص ، لإنتاج مبحث علمي في جغرافيا حضارية تجمع بين التورخة والفلسفة؟ الجوابُ يقدِّمه بريتون في كتابه هذا الذي صدر للمرَّة الأولى سنة 1987 في باريس . وإذا كانت جغرافيا الحضارات لا تتبدَّل كثيراً ، في التاريخ التكويني لثقافات الشعوب وحضاراتها ، فإن حوادث قد تقع في أيام أو في أعوام قليلة ، تكون بمثابة زلزال لأرضٍ كانت تبدو ، سياسياً أو ثقافياً أو حضارياً ، بأنها أرضٌ يابسة أو راكدة . فما بين 1987 تاريخ صدور هذا الكتاب للمرَّة الأولى بالفرنسية ، وعام 1991 أو 1992 تاريخ ظهوره بالعربية وللمرَّة الأولى ، وقعت زلازل في العالم ـ أبرزها زلزال أوروبا الشرقيَّة من سقوط جدار برلين إلى سقوط جدار الكرملين ، وزلزال الحرب على الخليج ـ لمّا تكتملْ فصولاً بعد . وهذه الزلازل الحضاريَّة الكبرى بدَّلت كثيراً في الجغرافيا الفكريَّة الراهنة : فما كان ستاراً حديدياً لم يعد كذلك ؛ وما كان أمناً عربياً لم يعد كذلك . فكيف ، والحال هذه ، يمكن لكتاب كهذا أن يحافظ

على راهنيّته ، دون أن يُضحّي بتاريخيته وعلميّته ؟ في مثل هذه الحالة ، هناك سبيلان ، لا ثالث لهما : إما أنْ يعاود المؤلِّفُ النَّظر في ما حدث واستجدَّ بين طبعات كتابه المتتالية ؛ وإما أن توضع مقدّمة نقديّة للكتاب تستدرك معلوميَّة الكتاب ، بنقد مضمونه وما تعتريه من شوائب وهنات ـ إذا وُجدت أو تكشَّفت لوعي النّاقد ـ ، وبالتنويه بما طرأ وشكَّل حالةً موضوعيَّة لا يمكن تجاهلها أو قراءة الكتاب دون استيعائها .

يتساءل رولان بريتون عن معنى الحضارات ، ويرشدنا إلى المغزى التاريخي والفلسفي العام ، لانتقال الوعي العلمي من وحدة الحضارة إلى تنوّع الحضارات . وهو إذْ يتسلَّق شجرة الاشتقاق اللاتيني واليوناني ـ وهذا حقّه في مرجعيّته ـ لكلمة حضارة ، فإنه لا يعفينا نحن العرب من تسلُّق شجرتنا الاشتقاقية الخاصّة بنا ، كمرجعيَّة ثقافيَّة : حيث أن الحضارة ترشدنا إلى حالة حضورنا في العالم المسكون ، حالة إعمارنا جزءاً من عالمٍ صار عالمنا بفضل حضورنا الإنساني ، الإعماري ، فيه . وهو حضور في حاضرة ، في مدينة ، في معمورة جديدة صنعناها بأنفسنا ولأنفسنا ، فكانت صورة حضورنا الجغرافيّ في تاريخ عالم لم يزلْ يتكوّن ويصنع ذاته . وفي مقابل الحضور الحَضَري ، العُمراني ـ الاجتماعي ، تبرز الثقافة مشتقةً من جذر ثَقِفَ ، زرع وصقل ، أدّب وهذَّب ، حتى بلوغ مكارم الأخلاق . أي بكلام آخر ، إن العمران المدني للعرب يقابله ويكمّله عُمرانُهم الأخلاقي ، المعنوي ، الروحيّ .

وإذا كان من حقّه ، كمؤلِّف ، الاستشهاد بتصوّرات شبينجلر وتوينبي ، فليس من العلميَّة بشيء الاقتصار عليهما ، وتناسي جَدّ المؤرّخين الحضاريين في العالم الحديث : العلّامة عبد الرحمن بن خلدون (القرن الرابع عشر م) سواءً في مقدّمته لكتاب « تاريخ العبر » أو في سيرته شرقاً وغرباً . فنظريّة ابن خلدون في تعاقب الأجيال وتعاقب المدنيّات والحضارات ، وانقلاب العُمران بانقلاب الرياسات العلمية والسياسيَّة ، لا تبدو بلا فائدة لباحث موضوعيّ ، يطمح إلى تقديم مقروئيَّة متكاملة . فإذا جاز مثلاً لبريتون أنْ يقرأ جغرافيا حضارات العالم الغربي من منظور توينبي وشبينجلر مثلاً ، أليس من الأصلح ، مثلاً ، أن يُقرأ تاريخ الحضارات الأخرى ، وفي مقدّمتها الحضارة العربية

الإسلامية ، من منظار ابن خلدون والمقريزي وابن الأزرق ، الخ ؟

هذه أسئلة تأسيسية تطرح نفسهـا على القارىء العـربي وعلى المؤلّف العربي قبل أن تطرح نفسها على سواه . وفي هــذا المجال ، يمكن الاسترشاد بأعمال عبد اللّه العروي ومحمد عابد الجابري ومحمد أركون وهشام جعيط، الـخ ؛ ولكن ليس بـدون نقـد . زدْ على ذلـك ، أنّ صـورة المعمـورة ، أو المسكونة ، في وعي الجغرافيّين الحضاريّين العرب والمسلمين ، هي جزء لا يتجزأ من موشور الثقافة الإسلامية ـ العربية ، ونظرتها الحضارية إلى حضور المسلمين في العـالم . فمثلاً ، نـظريَّة الفضـاء الرّوحي لـلأمـة أو للنـاسيَّـة المحمديّة (عبد اللّه العلايلي ، أين الخطأ ؟) تقدّم قراءتين متكاملتين لأمـة الدعوة (العرب) ولأمة الاستجابة (المسلمون غير العرب) ؛ وهذه القـراءة التأصيلية او التأسيسية ، تبدو ممتنعة من منظار القراءة الغربية أو الاستغرابية وحـدها ـ التي لا تخلو من أنـوية مـركزيـة غـربيـة ولا من نـظرة استعـراقيَّـة (ethnocentriste) ـ طالما أن الكلام يدور حول أعراق وأقوام ، كان حضورهم المعموريّ أساساً لجغرافيا حضاراتهم .

يبقى أن هذا الكتاب ، على ما فيه ، ما له وما عليه ، يوفّر لنا مرجعيَّةً أوليَّة لإدراك مواقع مدارنا الحضاري العربي الإسلامي ، بالمقارنة مع المدارات الحضارية الأخرى ، التليدة والطريفة : من المدار الحضاري الهندي إلى جاره الصيني ، والآسيـوي الجنوبي الشـرقي فالأوقيـاني ، وصـولاً إلى المـدارين الحضاريين الغربيين الأوروبي الغربي ونقيضه الشرقي ، والأميركي الشمـالي والجنوبي ، مروراً بالمدار الحضاري الزنجي ـ الأفريقي .

ولكنَّها مرجعيَّة بحاجـة إلى نقد من داخلهـا ، يتولّاه اختصـاصيّون في الفلسفة واللغات والعلوم الإنسانية . ومثال ذلك : حين يتحـدّث بريتون عن المـدار الحضاري العـربي ـ الإسلامي ، لا نجـد مبـرّراً ولا مسـوّغـاً علميـاً لاستشهاده باستمرار وجود الآرامية حتى اليوم ، محكيةً في بعض القرى اللبنانية (المارونيَّة) ، دون أن يسمِّي واحدةً من تلك القرى الموهومة أو المفترضة ، لكي يتحقّق الباحث أو القارىء من وجودها . نحن لا نعادي الآرامية ، ولا

سواها من أخوات العربيّة وشقيقاتها ؛ ولكنّ الواقع الجغرافيّ الحضاري الغربي يبيّن ، بلا تناقض ، مدى تعرّب لبنان ، حتى في كنيسته المارونيّة ، مع حفاظه على طابع تنوّعي ثقافي ، هو وليد المُناخ الحضاري الحرّ الذي أنتجه اللبنانيون بأنفسهم إسوة بشعوب متحرّرة في العالم .

يُضاف إلى ذلك أن الكلام على المدار الحضاري الأوروبي الشّرقي يحتاج إلى إعادة قراءة وتدقيق في ضوء الانهيار الجدراني ، الذي يتوقّعه الكتاب من خلال استشهادات سريعة . فالكلام على الاتحاد السوفياتي والبلدان الدائرة في فلكه ، يصحّ حتى العام 1986 ؛ وما بعد هذا العام يستحقّ تأريخاً آخر ، فحين تتبدّل جغرافيا الشعوب ، لا تبقى جغرافيا الحضارات كما هي .

ممتعٌ ومُفيد أن تُسلّط أضواء العلم على موضوعات حسّاسة ؛ ولكنّ الأمتع والأفيد أن يظلّ العلم ، لا الحزبية العلميّة ، سرّ الذي يتكلّم ويحكّم ويُفلسف .

هذا ، وقد استدرك المؤلّف في طبعة أيلول/ سبتمبر 1991 ما طرأ من أحداث في بعض البلدان ، ما بين 1987 ، تاريخ صدور الطبعة الأولى ، و 1991 تاريخ صدور الطبعة الثانية ، اللتين اعتمدناهما معاً في هذه الترجمة .

المعرّب

بيروت في 1992/1/10

مدخــــل

« إن الجغــرافيــا ، منــظوراً إليهــا من فوق ، في علاقاتها بــالإنسـان ، ليست شيئاً آخر سوى التاريخ عبر المكان ، مثلما يكون التاريخ هو الجغرافيا عبر الزّمان » .

إليزيه ركلوس[1]

جغرافيا المجتمعات رائجة وميسَّرة نسبيّاً على صعيد الوحدات الصغيرة : أقاليم ، مدن ، أحياء ، الخ . وتكون المهمّة ميسَّرةً بقدر ما تكون الـوحدة المُعتبرة محدّدة بشكل واضح : جزر ، أودية مغلقة ، منابذ بشرية ذات قاعدة إثنيّة ، إجتماعيّة ، الخ . إلاّ أننا إذا وجّهنا النَّظر نحو الوحدات المجتمعيّة[2] الكبرى ـ أي الوحدات العظمى في المجتمع الشامل : أعراق ، حضارات ـ فسوف تتعقّد المهمة وتستوجب تعريفاتٍ وتحديدات ، تتضمَّن عدّة علامات فارقة ، غالباً ما تكون شديدة التـوزّع والتباين . فالدول ومتفـرّعاتهـا الإدارية تقدّم ، وحدَها ، أطر المقاربة ـ الاحصائية والمؤسسيّـة ـ التي لا يرقى إليهـا الشّك ، ولكن لفتـرةٍ معيَّنة . لأنّ الـدولة هي أيضـاً بنية زمنيّـة ، ظـرفيّـة وخـاضعـة للتـطور .

وبالتالي يمكنُ لجغرافيا الحضارات أنْ تستدعي معرفة حقيقيـة بمعنى الحضارة ؛ وتستلزم أن يكون تعريف الحضارة مقبولاً عموماً ، ومن ثمّ تستوجب أن يكون معروفاً عددُ الوحدات المحدَّدة على هذا النحو . ولكنْ ليس في الأمر

(1) Elisée Reclus: L'Homme et la Terre, 1905, P.4.

(2) ينبغي تمييزها من الوحدات الاجتماعية التي تقسم المجتمع إلى جماعات فرعية تتشارك في الثقافة ذاتها وتشارك بطريقة تكامليّة في الحياة الاقتصادية نفسها : طبقات ، طبقات مغلقة ، قبائل ، عشائر ، عائلات ، خلايا مكوّنة للنسيج الاجتماعي لدى شعب واحد .

شيء من ذلك ؛ إذْ أنَّ لكلِ فرد ، في كل لغة ، في كل اختصاص ، في كل مدرسة وكل شعب ، رأياً في الموضوع ، وفكرةً حول المعايير الموضوعيّة التي يتعيّن استعمالها ؛ ولأن كل فرد يستخلص العِبَر الذاتية التي تترتّب على هذه الخيارات . وعليه ، فإن صعوبة الإحاطة بالحضارات تكمنُ ، أولاً ، في تنوّع الظواهر المدروسة ، وبالتالي تكمن في اختلاف العلوم والمنهجيّات المُعتبرة : التاريخ وما قبل التاريخ ، الجغرافيا ، الانثروبولوجيا (الإناسة) ، علم الاجتماع ، الاتنولوجيا ، اللسانة ، دراسة الأديان والفنون والآداب ، الفلسفة . إن الجغرافيا الثقافيّة أو علم المعرفة تشمل هذا كلّه ؛ ويمكنها ، دون ادعاء شمولها كلّ شيء ، أن تسهّل كثيراً من التقريبات ؛ خصوصاً إذا كان البعد المكاني والترابطات المكانية مألوفة لديها تعريفاً . فقد جرى تناول المورفولوجيّات ، والنمطيّات وحتى الفنومنولوجيّات المتعلّقة بالحضارات . ونحن هنا لا نحاول القيام بمجرّد دراسة بيئيّة للحضارات ، إذْ أن هذا الأمر ينطلق من مذهب حضري حتميّ ، غريب عن روح الجغرافيا الحقيقيّة . وعليه ، إذا كانت حواجز وظروف الإطار البيئي الطبيعي ضاغطةً ويجب أخذها في عين الاعتبار ، فمن الصحيح أيضاً أنّ الحواجز الثقافية والظروف المرتبطة بالبيئة البشرية الخارجيّة تضغط بالقدر نفسه ، أقلّه على صعيد سلوك الإنسان الفرد أو على صعيد الجماعة . وبالتالي يكون المقصود هنا القيام بدراسة لعلم أسباب البيئة ، لا غير . وفي هذه الظروف ، ونظراً لتشعّب الموضوع ، رأينا من المفيد الاكتفاء في هذا الكتاب ببعض النماذج والاختصارات .

ففي المقام الأول سنرسم لوحة عامة : فبعد التذكير بالمعنى الذي يمكن أن نعطيه للحضارة ، سندرس الإطار الجغرافي ، ثم الفاعلين ، وأخيراً سنرسم لوحة لتكوين الحضارات الأولى .

وفي المقام الثاني سندرس الحضارات المعاصرة ، كلّاً على حدة ، في مدارها الخاص بها ، كما سندرس متفرّعات البشرية الكبرى ، وتقسيمات كوكبنا ؛ وسنتناول ما يقابلها من عوالم جغرافيّة ، بشريّة وثقافيّة : العالم الهندي ، العالم الصيني والمتأثر بالصين، جنوب شرق آسيا المتأثر بالهند أو بالصين ، وأوقيانيا ، ثم العالم العربي الإسلامي ، فالعالم الغربي ،

الأوروبي ـ الغربي ، الأميركي الشمالي والأميركي اللاتيني ؛ وأخيراً العالم الأوروبي الشرقي ، والعالم الزنجي ـ الأفريقي . مع ذلك ، ليس المقصود تقديم ترسيمة لتعارضات قديمة ، بل المقصود رسم صورة كوكب يزداد اتحاداً ، مع الحفاظ على تنوّع ، محرّكٍ للفكر والروح ، وغنيّ من زاوية المنجزات المقبلة ، المشروطة بأفضل ما يقدّمه كلٌ منا .

وبما أنَّ الطبعة الأولى من هذا الكتاب قد ظهرت بالفرنسية سنة 1987 ، فإن أحداث 1989 استوجبت بعض الإضافات التي جرى إدخالها في متن الكتاب على شكل فقرات إضافية مُشدّدة .



ما الحضارات؟

الفصل الأول

من الحضارة إلى الحضارات

I . ظهور الكلمة

ظهرت كلمة Civilisation بالفرنسية سنة 1734 ، وأصلها واضح : فهي تنحدر مباشرة من صفة Civilisé (متحضّر)في القرن السابع عشر ؛ وهذه الصفة متحدّرة بدورها من فعل Civiliser (القرن الثالث عشر) ، المشتق مع الظرف Civilement (القرن الرابع عشر) من صفة Civil (مدني ، حَضَري) في القرن الثالث عشر ، المُجتلبة من اللاتينية ، مثل Civilité (القرن الرابع عشر) و Cité ـ مدينة ، حاضرة ـ (القرن الحادي عشر) من Civitas . فمنذ البداية ارتبط مفهومُ الانتماء إلى المدينة ، إلى جماعة منظّمة تمثّل الدولة أو تقوم مقامها ، دلالياً بمفهوم التهذيب . في المقابل ، وعلى النحو ذاته ، تولّد من الكلمة اليونانية Polis ـ مدينة ، دولة ـ ومن مشتقّها اللاتيني Politus (صفة) ، فعل Polir هذّب ، مدّن (القرن الثاني عشر) وصفة مهذّب Poli (القرن الثاني عشر) ، واشتقت منه كلمات Police (الثالث عشر) و Politique (الرابع عشر) و Policier (السادس عشر) و Politesse (السادس عشر) التي مزجت وميّزت شيئاً فشيئاً بين مفاهيم التهذيب ، اللّياقة وحسن الأداء ، ومفاهيم النظام العام والدولة . كما تحدّرت من الجذر اللاتيني (Urbs) ـ المدينة ـ صفة (Urbain) والاسم الموصوف Urbanité في القرنين الثالث عشر والرابع عشر . ولنلاحظ أيضاً أنّ الإنسان المدني ، المهذّب ، الحَضَري ، هو أيضاً البورجوازي ، الكلمة المتحدّرة ، مثل Bourg ، في القرن الحادي عشر من الكلمتين الألمانيتين Bürger و Burg .

أخيراً ، بعد كلمة Civilisation ـ حضارة ـ ، ستولد أيضاً من فعل حضَّر Civiliser ، الصفات Civilisable ـ قابل للتحضّر ـ (الثامن عشر) ، وفي نهاية المطاف Civilisateur ـ محضِّر ، ممدِّن ـ (التاسع عشر) في وقت واحد مع صفة Policé (التاسع عشر) . وبالتالي ، فإن كلمات Civilisateur, Civilis-able, Civilisation, Civilisé ترسم في أسرة الكلمات المتحدّرة من Cité حاضرة ، معالمَ اشتقاقيّة تدور حول مفاهيم التربية (éducation) والترقّي والتطور والتقدم والحالة المتقدّمة/ المتفوّقة . فالحضارة هي أولاً فعل تحضّر ، مسار تصاعدي وتقدّمي ، يرمي من خلال التغيير إلى احتواء واستدماج أولئك الذين يظلّون خارجها ، في الأرياف ، الريفيّين أو Rustres أو Manants أو Vilains ، أو في الغابات : المتوّحشون ، البريّون (Sauvages من اللاتينية Salvaticus) . ثم أنَّ الحضارة هي حالة التحضُّر والمتحضِّر ، جملة الصفات المكتسبة خارج الطبيعة . وهي أخيراً مجموع الظواهر المميِّزة للحياة في هذا العالم الخاص ، المتطوّر ، الذي بناه الإنسانُ ، المَدَني .

هناك كلمة رئيسة أخرى ، هي كلمة ثقافة (Culture) التي ظهرت في الفرنسية بمعناها الدقيق في القرن الثالث عشر ، وتلتها في القرن الرابع عشر كلماتُ مثقّف/ زارع Cultivateur ، ومزارع Agriculteur ؛ لكنّها لم تكتسب معناها المجازي كمعرفة ، كتربية ، وعلم ، إلاّ في القرن الخامس عشر ، انطلاقاً من مشتقاتها أيضاً : Inculte, Cultivé, Cultiver . وبشكل متوازٍ ، يحتفظ المعنيان (زرع ، ثقف) بكامل قوّتهما ، ولن يتمايزا إلاّ بصفتي Cultural (التاسع عشر) و Culturel (القرن العشرون) .

إن كلمة حضارة (Civilisation) التي ظهرت في عصر الأنوار وسطوع اللغة الفرنسيّة ، سيجري تبنّيها شيئاً فشيئاً ، كما هي : في اللغات الأوروبية الأخرى (Civilization بالانكليزية ، Civilisacion بالاسبانية ، Civilisazione بالايطاليّة ، Zivilisation بالألمانية ، Tsivilisacja بالروسيّة ، الخ) . ففي ذروة العصر الذي كان الأوروبيّون يهيمنون فيه على العالم ، فكريّاً وسياسياً ، جرى تصوّر الحضارة ، أولاً ، بصيغة المفرد ، وكذلك الحال بالنسبة إلى الثقافة . غير أن الأوروبيّين بعدما هذّبوا إدراكهم للعالم وأظهروا مميّزاتهم

الخاصة بهم ، سارعوا إلى القول بوجود عدد من الثقافات مواز لعدد اللغات والشعوب ، وربما قالوا أيضاً بوجود حضاراتٍ شتّى .

إنها بداية تأمل ، في ما يتعدّى الحدود ، بداية تفكّر مديد في موضوعات الثقافة والحضارة[1] . ففي وقت مبكّر جداً ، وخصوصاً في الفكر الألماني ، تعارضَ المفهومان ، انطلاقاً من تضمينات متباينة . اقترح غوته مصطلح Politur بدلاً من Zivilisation في مقابل Kultur . وأضافتِ الألمانية إلى كلمتي Kultur و Zivilisation ، مفهوم الثقافة المكوِّنة Bildung إلاّ أنّ التفريق ، في الفرنسية وفي معظم اللغات الأوروبيّة ، لن يبرمج ويُنسَّق إلاّ نادراً ، وستظلّ الكلمتان مترابطتين من حيث التكامل والسببيّة . وسوف يدور التجديد الأكبر حول الاعتراف التدريجي بتنوّع الثقافات والحضارات ، والانتقال من الحضارة إلى الحضارات .

II . نماذج التطور في خط متصاعد

في الوقت الذي كانت أوروبا تبتكر كلمة حضارة ، كانت تكتشف المتوحّشين أيضاً . فكانت تقوم بجردةٍ للعالم ، غير المُغلق حقاً بعدُ ، وباستشراف للبشرية التي لا يزال الجدال دائراً حولها . وكان التعارضُ الأساسي بين الطبيعة والثقافة قد سمح بفرزٍ أولي مختصر بين شعب « طبيعي » أو « ثقافي » (Naturvolk أو Kulturvolk) أي بين شعب بدائي أو متحضّر ؛ وهو بالطبع فَرْزٌ غير كافٍ إطلاقاً لفرز الكلّ . وانطلاقاً من ذكريات العصر الكلاسيكي القديم ، بدا أنّ فرزاً ثلاثيّاً قد فرض نفسه في أوساط علماء الاجتماع : حالة وحشيّة ، حالة بربريّة ، حالة حضاريّة . هكذا كان النموذج الذي وضعه إ.ب . تيلور Tylor (1832 ـ 1917) في كتابه **الثقافة البدائية** (المترجم هكذا إلى الفرنسية ، باريس ، 1876) :

---

(1) Cf. Alain de Benoist, Culture/ Civilisation, Nouvelle école, N° 25/26, hiver 1974-1975, P. 85- 109.

إنها دراسة معمّقة للتعارضات بين الثقافة/ اللاثقافة ، الثقافة/ الطبيعة ، الثقافة/ السياسة ، الثقافة/ الحضارة ، وتقارن بوجه خاص بين مختلف الاستعمالات الفرنسية والألمانيّة .

Primitive Culture: Researches into the Development of Mythology Philosophy, Religion, Language, Art and Custom (1871).

أما لويس Lewis مورغان (1818 ـ 1881) فيهذّبُ في كتابه :

Ancient Society or Researches in the Line of the Man Progress from Savagery through Barbarism to Civilization (1877).

المترجم إلى الفرنسيّة بعنوان المجتمع البدائي (1971) ، ويطوّر النموذج من خلال تقسيم كل حقبة إلى ثلاث مراحل متميّزة بمنجزاتٍ ثقافيّة جديدة : الحقبة الوحشية القديمة (اللغة) ، المتوسطة (النّار ، الفأس) ، الحديثة (القوس) ؛ البربرية القديمة (الخزف) ، المتوسطة (التدجين والزراعة) ، الحديثة (النّار) ؛ الحضارة القديمة (الكتابة) ، المتوسطة (البارود ، البوصلة ، الطباعة ، الخ) والحديثة (الآلة البخارية ، الكهرباء) .

غير أن علم الآثار كان في خلال ذلك الوقت قد فرض منظاره التقنولوجي : المنظار الباليوليتي (الحجر المصقول ، القطاف ، الصيد ، الجماعات الصغيرة المتنقّلة) ، المنظار النيوليتي (الحجر المنحوت ، الزراعة ، التدجين ، السُّكنى الجماعية) ، ومن ثم المجتمعات التاريخيّة (الكتابة ، المدن ، الدول ، الطبقات الاجتماعيّة) . مع كارل ماركس ، كان نموذج قائم على طرق الانتاج المولّدة لتشكيلات اجتماعية ، قد عمّم رؤية ذات أربع مراحل : المرحلة القبليّة (الشيوعيّة البدائية) ، المرحلة القديمة (الرقّ والعبوديّة) ، المرحلة الإقطاعيّة والبورجوازية (الرأسماليّه) . أما تحليلُ بعضِ المجتمعات غير الأوروبيّة فقد حدا ببعض الماركسيّين مثل ڤيتفوجل (Oriental Society a Comparative Study of Total Power 1957) Wittfogel إلى إدخال نمط الانتاج الآسيوي ، الذي أتى إنجلز على ذكره ، والمولّد للدولة الاستبدادية الشرقيّة بدلاً من تطوّر العبودية/ الاقطاعيّة . كما أدّت دراسة البنى السلاليّة ، لا سيما في إفريقيا ، (إيڤانز ـ بريتشارد) ، إلى الإحاطة بنمط إنتاج قروي أو خراجيّ مُبكّر ، مخبرٍ عن النمط السابق (سمير أمين ، النمو اللامتكافىء ، بحث في التشكيلات الاجتماعية لرأسماليّة الأطراف ، دار

الـطليـعـة ، بـيـروت ؛ Le Développement Inégal, Paris, Ed. de Minuit, 1973) .

تنـزع كل هـذه النماذج الترسيمية (Schémas) إلى فـرض رؤية عـامة للتطور ، قوامها التقدّم التقنولوجي ؛ لكنّها تقفُ حجر عثرة في وجه التباينات ، السرعات اللامتكافئة ، الفوارق الملحوظة بين مجتمع وآخر ، ولا تستـوعب مختلف تقاسيم البشريّة التي تكوّنها الحضارات . إنّها تقوم بتقسيم إلى مراحل متتـالية تـذكّر بـالمراحـل المطبـوعة بطابع السـلالات والشعـوب المهيمنـة (المصريين ، الفرس ، الأغريق ، اللاتينيين ، الجرمان ، الخ) . أو بالعصور (الأزمنة القديمة ، القرون الوسطى ، الأزمنة الحديثة) الصالحـة لقطاع من الكـرة الأرضيّة ؛ لكنّهـا قلّما تحيط بـالتطورات المتمـايـزة أو المتـوازيـة في المجتمعات المتباعدة وغير المتّصلة ببعضها .

III . شپنجلـر وتصـوّرات الأدوار

في المقـابل ، شـرعَ الألمـاني أوسـوالـد شپنجلر (1880 ـ 1936) (انحـطاط الغرب ، 1918 ـ 1922 ؛ بـاريس 1948 ـ 1950) ، بإجـراء مقارنة منهجيّـة ، فميّز بين ثمـاني حضارات كبـرى (المصريّـة ، البابليـة ، الهندية ، الصينيّة ، المكسيكيّة ، القديمة الكلاسيكية ، العربيّة والغربيّة) ، وقارن تطوّرها مرحلةً مرحلة . وقادته هذه المقارنة إلى تصوّر دوري (Cyclique) لتطور كلٍ منها ، حيث تتواجه الثقافة والحضارة ، وهما تتعاقبان . في نظره ، الثقافة تميّز مراحل الصعود والارتقاء (الربيع ، الصيـف ، الخريـف) والحضارة تميّز مرحلة الانحطاط (الشتاء) في كلٍ من هذه المغامرات الجماعيّة الكبرى لجزءٍ من البشريّة . إنّه تصوّر متشائم لكنّه غنيٌ مع ذلك ، إذْ أنّه يفسح المجال أمام عدد كبير جداً من المقاربات الحصيفة ، ويقدّم عدّة تفسيرات لنضـوب ونهوض هذه المجاميع الاجتماعية ـ السياسية ـ الثقافية الكبـرى التي ما زلنـا نواصل تسميتها باسم الحضارات . فهو تصوّر مستوحى من البيولوجيا ، ويمثّل الحضارات بكائناتٍ حيّة ، وبالتالي قابلة للموت .

إن مرحلة « الحضارة » بـالمعنى الشپنجلري هي إذن مرحلة غسقيّـة ، كسـوفيّة ، تعلن نهـاية الـدَّوْر . فبعد مـرحلة الثقافـة الدفّاقـة ، الأصليّـة ، الديناميكية ، مرحلة البناء والنضج ، التي تبلغ ذورتها مع الحقبات المطبوعة بطابع الاسكندر وهرون الرشيد أو بونابرت ، ستأتي مرحلة الانحطاط ، هيمنة الظاهرة الحَضَريَّة والمدنية الكوسموبوليتية الكبرى (برغـام ، الاسكندريّـة ، روما ، ڤيينا ، الخ) ، حيث يسود المال والترف والرياضة وإثارة الأعصاب ، والفن التشكيلي ، والمبـاني الضخمة ، والافتتـان بـالمستـوردات العجيبـة ، والأزياء المتبدّلة ، والماديّـة والريبيّـة ، وانحطاط الفكـر المجرَّد إلى فلسفـة احترافيَّة في قاعة المطالعة ، وإلى مختصرات ، والشعور بنهاية العالم . . .

إن منـظار التحجّر الحتمي يفضي إلى تشـاؤم جذري تجـاه الغـرب ، وكذلك تجاه كل « حضارة » . فقد أعلن شپنجلر « أنّ الأمل جُبن »[1] ، خوف تجاه تراث غربي بكامله ، لا يزال يجسّده ارنست بلوخ (1885 ـ 1977) مع كتابه مبدأ الأمل (1949 ـ 1959) ، الذي يقول « لا ضمانة لنا ، وليس لنا سوى الأمل » . وحين انغمس شپنجلر في رؤيتـه لنهايـة الدور ، رفض تبنّي مفهوم « العودة الأبديّة » مع العلم أنّه جزء لا يتجزأ من كـل فكر دوريّ[2] ، ورفض الانتقال من تلازم الثقافة ـ الحضارة إلى التسامي الذي يربطها بوريثاتها ، طالما استطاعت أن ترث من الحضارات التي سبقتها ، أي رفض التسامي الذي يربطها بتوالد الحضارات وتناسخها .

IV . توينبي وحضاراته الـ 38

هذا الانتقال هـو الذي ينجـزه المؤرّخ الانچليزي ارنـولد ج. تـوينبي (1889 ـ 1975) في عمله الكبير الذي صار كلاسيكياً : دراسة التاريخ ، 12 جزءاً (A Study of History, 12 vol., 1934- 1961) .

يصـوغ توينبي لـوحـة نمـوذجيـة (Typologie) مفصّلة ويضـع تصنيفـاً

(1) O. Spengler, l'Homme et la Technique, Paris, Gallimard, 1958, P. 179

(2) Mircea Eliade, Le mythe de l'éternel retour, archétype et répétition, Paris, Gallimard, 1969.

للحضارات التي يقدّمها بوصفها عدداً من كيانات مجتمعيّة كبيرة الحجم تتميّز بأصالة اجتماعية ، سياسيّة ، ثقافية ودينيّة . كما يقدّمها بوصفها متعضيّات (Organismes) جماعيّة ، حيّة ، وتدرّ في مراحل الولادة (ما قبل التكوينيّة والتكوينيّة) والنضج (الدولة الشاملة) والانحطاط والزّوال ؛ لكنّ كلّ مُتَعَضٍّ يرتبط بجيرانه وأقربائه من خلال التناسل في الزّمان أو تأثير المكان . صحيح أنّ هذا مفهوم دوري مختلف ، لكنّه يستخلص من حياة البشرية ، مثلما يستخرج من الأجيال مجاميع اجتماعية ـ ثقافيّة تتعاقب في « شبكات » أو « شجرات » على غرار الأنواع (Phylums) البيولوجيّة . ففي خلال ظهور كتاب كبير ، جرى وضعه على امتداد أكثر من ربع قرن ، تمكّن توينبي من تعديل تصنيفه للحضارات . فقد انطلق في الأجزاء X-I من تعداد 21 حضارة شهدت تطوراً كاملاً بالاضافة إلى ثلاث حضارات « مجهضة » وخمس حضارات « موقوفة » ، وتوصل في الجزء XII (إعادات نظر ، 1961) إلى مجموع 34 ، المرفوع إلى العدد 38 في كتاب التاريخ (1975) .

هناك 32 حضارة تُعدّ كاملة النمو أو « التفتّح » منها 7 حضارات « مستقلّة » أي أولى : الحضارتان المصرية والأنديّة ، المعزولتان (Unrelatcd) والحضارات الإيجيّة، السومريّة ـ الأكاديّة، الأنديزيّة، الصينيّة والمزو ـ أميركية « غير المتفرّعة » من الحضارتين السابقتين ، لكنّها غير معزولة تماماً ؛ يضاف إلى ذلك 8 حضارات « متفرّعة » ، منسوبة إلى الأولى ، في « مجموعتين » (Batch) أو جيلين متعاقبين ؛ تضمُّ المجموعةُ الأولى :

ـ الحضارة السوريّة ، المنتمية إلى الحضارات المصريّة ، السومريّة ـ الأكّاديّة ، الإيجيّة والحثيّة ؛

ـ الحضارة الهلينيّة ، المنتيمة إلى الحضارة الايجيّة ؛

ـ الحضارة الهنديّة ، المنتمية إلى الحضارة الأندوزيّة ؛

ـ الحضارتين الافريقيّتين في الشرق ، ثم في الغرب ، المنتميتين إلى الحضارة المصريّة ، ثم إلى الحضارة الإسلامية ، فالغربيّة .

والمجموعة الثانية تضمُّ الحضارات الغربية ، الأرثوذكسية (البيزنطيّة)

والإسلامية المنتمية إلى الحضارتين الهلينيّة والسوريّة .

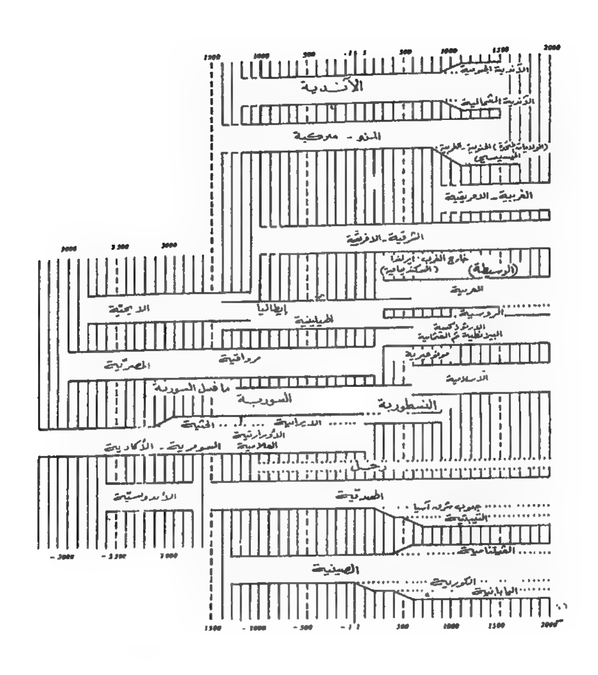
حول هذه الحضارات الرئيسة الـ 15 ، المتعاقبة في ثلاثة أجيال ، يحصي توينبي 17 حضارة تابعة و6 حضارات « مجهضة » أو ما قبل الحضارات .

الحضارات الـ 17 التابعة هي :

ـ الحضارات الحثيّة ، الأورارتيّة ، والإلميّة ، الدائرة في فلك الحضارة السومريّة ـ الأكّاديّة ؛
ـ الحضارة المَرْويّة ، الدائرة في فلك المصريّة ؛
ـ الحضارة الايطالية (Italique) القريبة من الحضارة الهلينيّة ؛
ـ الحضارة الإيرانية ، الدائرة في فلك الحضارة السومريّة ـ الأكاديّة ، ثم السوريّة ؛
ـ الحضارة البدوية ، الدائرة في فلك الحضارات المدنيّة المجاورة في سهوب أوروبية ـ آسيوية وافريقيّة ؛
ـ حضارات جنوب ـ شرق آسيا والتيبت ، الدائرة في فلك الحضارة الهنديّة ؛
ـ الحضارات الكورية ، اليابانية والفيتنامية ، الدائرة في فلك الحضارة الصينيّة ؛
ـ الحضارة الروسيّة ، الدائرة في فلك الحضارة الأرثوذكسية أولاً ، ثم الغربيّة ؛
ـ الحضارات الأندية الجنوبية والشمالية ، الدائرة في فلك الحضارة الأنديّة ؛
ـ حضارات الجنوب ـ الغربي (الولايات المتحدة) والمسيسبي ، الدائرة في فلك الحضارة المزو ـ أميركية .

الحضارات المُجهضة والمكسوفة (ما قبل الحضارات) هي :

ـ حضارة سورية أولى أو قبسوريّة (حوريّي ميتانيا) ، الدائرة في فلك الحضارة السومرية ـ الأكاديّة ، التي كسفتها الحضارة المصريّة ؛
ـ الحضارتان المونوفيزية (الديار المسيحية في الشرق الأدنى ، من سورية إلى مصر والحبشة) والنسطوريّة (الديار المسيحيّة الشرقية أكثر ، من إيران إلى



شكل 1 ـ توالد الحضارات التاريخية الكبرى ، كما يراه توينبي : حضارة مستقلة أو متفرّعة ، مداريّة ، (مُجهضة) ، اقليميّة ؟

آسيا الوسطى والهند) ، وكلتاهما دائرتان في فلك الحضارة السورية ، التي كسفتها الحضارة الإسلاميّة ؛

ــ حضارات الغرب الأقصى (الديار المسيحية الايرلندية) ، واسكنديناڤيا ، والدولة الحضرية الوسيطة ، الدائرة في فلك الحضارة الغربيّة ، والمنكسفة بواسطتها .

فلنلاحظْ أنَّ توينبي كان يتساءل ، في نهاية المطاف ، عما إذا كانت الكيانات الألميّة (élamite)، الأورارتية والمروبتيَّة والإيطاليّة تستحق صفة حضارة وعمّا إذا كانت تستوجب ، بدلاً من ذلك ، أن يُنظر إليها كأنها مجرّد « أمصار ثقافيَّة » من الحضارة المجاورة المزدهرة (راجع شكل 1) .

ولنلاحظْ أيضاً أن توينبي كان يذكر ، على هامش تصنيفه الأول إلى 21 حضارة ، وفي ما يتعدّى الحضارات المُجهضة ، خمس حضارات « موقوفة » ، على سبيل المثال : حضارات أسبارطة ، البدو (في السهوب الأوروبية - الآسيوية) ، العثمانيّين ، بولينيزيا والأسكيمو . وأنّه كان يشدّد على مصير بعض « الرُفات المتحجّرة » المتبلورة لدى جماعات دينيّة :

ــ 4 متحدّرة من الحضارة السوريّة : اليهود والمجوس وكذلك المعاقبة القائلين بطبيعة واحدة للمسيح (في أربع مجموعات : أرمينيا ، بلاد الرافدينْ ، مصر ، الحبشة) والنساطرة (في مجموعتين ، إحداهما في كردستان والأخرى في الهند) ؛

ــ 3 من الحضارة الهنديّة : الجاينيّون (Jaïns) ، مجتمعات البوذيّة هينايانا (سري لانكا ، بيرمانيا ، تايلاندا ، لاوس ، كمبوديا) والبوذيّة مهايانا اللاميّة (التيبت ، منغوليا) .

إنَّ تصنيف توينبي ، التاريخي جدّاً والمخصّص مكانة كبيرة للأديان الكبرى ، بوصفها عوامل توليد وتناسخ ، كان موضع انتقاد على صعيد روحيّته ، وكذلك على صعيد تفاصيله ، لا سيما عندما يؤول إلى تفريد حضارات « إقليمية » محصورة بشعب ؛ لكنَّ تصنيفه يقدّم في نهاية المطاف مورفولوجيا وتيبولوجيا منهجيَّة لظاهرة الحضارات ، ويفضي إلى رؤية نادرة

للتوليف الأرضيّ ، ولتحوّل المجتمعات التي لا يزال كثيرٌ من المؤرّخين يحتفون بها[1] .

V . التعارضات الثنائيّة

إلى جانب تقاسيم توينبي وتصنيفاته المبالغ فيها إلى حدٍّ ما ، هناك منظومات أخرى ، أبسط منها بكثير ، تتناول المجتمعات وتستذكر التعارض الأول بين الحضارة واللاحضارة .

فالاجتياح العجيب والأكيد للعالم بأسره من طرف المجتمع الصناعي وكل أنماط الحياة والتفكير المتصلّة به ، دفع إلى الاعتقاد بأن توحيد البشرية ثقافياً وشيكٌ ومحتوم ، وإلى القول إن كل ما يشذ عن هذا النموذج ، كالمجتمعات البدائية القديمة ، محكوم عليه بالزوال في أجلٍ محدود . وساد الظنّ بأن حضارةً واحدةً ستتمكّن من الهيمنة على كل الحضارات الأخرى ، والإطاحة بها ؛ وقوام هذا الظنّ هو التصوّر المبني على التعارض بين مركز ديناميكي لابتكارات تقنيّة ، أقتصادية ، سياسيّة وثقافية ، وأطراف جامدة ومهمّشة . وهذا التصوّر يجري استرجاعه بكل سهولة في العالم الراهن حيث النصف الشمالي من الكرة الأرضيّة ، المتطوّر ، يتعيّن عليه أنْ يقود « جنوباً » في طريق التنمية .

ولاحظت كل المجتمعات المتطورة ، على صعيد إقليمي لا كوكبي ، وشدّدت على الفوارق التي تفصلها عن جماعات بشريّة مجاورة تبدو جامدةً في طور بدائي جداً . وهذا ما كان المصطلح الصيني التقليدي يقصده من خلال وضعه الشعوب « النيئة » ، أي الأقوام الجبلية غير المندمجة في حضارة الصين ، في مواجهة الشعوب « المطبوخة » ، أي الصينيين وأولئك الذين كان الصينيون قد استوعبوهم وأثروا عليهم ثقافياً . وهذا أيضاً ما يلاحظه كلود ليفي -

(1) L'histoire et ses interprétations, Entretiens autour de Arnold Toynbee sous la direction de Raymond Aron, EPHE, Paris, Mouton et Co., 1961.

شتراوس في التعارض الذي يقيمه بين مجتمعات «حارّة»، مندمجة في مسار تطوري قائم على تراكم الابتكارات والثروة والطاقة الاجتماعية ، والمجتمعات « الباردة » المتجمّدة في تحجّرها الذي يطاول تقنياتها وعاداتها ، معتقداتها وأساطيرها ورؤيتها للعالم في آن . إنه تعارض قديم بين مجتمعات « تاريخية » مندرجة في مسلسل التطورات والطفرات ، تسمح لها كتابتُها بامتلاك وعيٍ ، والمجتمعات « التي لا تاريخ لها » ، « غير التاريخية » أو ما قبل التاريخية ، الباقية في المرحلة البدائية والجامدة من مراحل التراث والمشافهة . أو بكل بساطة ، التعارض بين حضارات « عليا » وحضارات « بدائيّة » كما يُقال أحياناً في أيامنا هذه ؛ ويقوم المدوّنون والمؤرخون والاجتماعيّون الخ . بوصف الأولى من داخلها ، عاملين على النصوص بوجه خاص ؛ ويقوم علماء الاتنوغرافيا والاتنولوجيا بدراسة الحضارات « البدائية » انطلاقاً من مشاهدة الظواهر والوقائع وجمع مأثورات الثقافة غير المكتوبة .

الواقع أنّ هذا التباين موجود وأنّ التساؤل عبر العالم لم يتوقّف ، التساؤل عمّا جعل مجتمعاً يتمكّن ، بمسارٍ ديناميكي داخلي ، من التحرُّك روحياً واجتماعيّاً واقتصادياً ، بفعل تطوّر نزعاته نحو الرفض والتمايز والإكتمال وتخطي أشكال كانت ثابتة حتى الآن ؛ تماماً كبطارية ذرّية حين تبدأ بالتباين والاختلاف إنما تفتتح مساراً لا رجوع عنه . لكننا ندور هنا أيضاً حول التعارض القديم بين المتحضّر ، الإنسان « المهذّب » في المدينة ، وبين المتوحّش ، إنسان الغابات . والتعارض الآخر ، الذي يرجع إلى ليلة الأزمنة نفسها ، يفرم بين المتحضّر ـ الكلامُ لنا ـ والآخر ، الجار ، البربري ، أي ذلك الذي يدندن ، لا يحسن الكلام (بلساننا) ولا يشاطرنا عاداتنا وتقاليدنا . وهذا التعارض لا يزال حيّاً بمكرٍ ، طالما أننا نشعر أنّ البربري ، شبه المتحضّر ، كأنّه تهديدٌ لنا بالعودة إلى حالة خرجنا منها منذ زمن قريب .

وقريب من ذلك أيضاً التعارضُ بين الشّرق والغرب . ففي نظر الصينيّين الواعين لكونهم يواصلون « امبراطورية الوسط » ، لم يكن الأوروبيّون سوى البرابرة الغربيّين . وفي نظر الأوروبيين ، لم ينقطع جيرانهم الشرقيّون عن تمثيل التهديد الرئيسي ، تمثيل خطر الحضارة المعادية مباشرة ، وهي في

حقيقتها الحضارة الشقيقة . الميديّون والفرس بالنسبة إلى الاغريق ، الفرس الساسانيون بالنسبة إلى البيزنطيين ، البيزنطيون بالنسبة إلى الغربيّين ، المسلمون (العرب أو الأتراك) بالنسبة إلى المسيحيين ، الآسيويّون بالنسبة إلى الأوروبيّين في العصر الإستعماري ، وأخيراً ، السوفيات بالنسبة إلى الغربيّين الحاليّين .

« أوه الشّرق هو الشّرق ، والغرب هو الغرب ولن يلتقيا أبداً »
. (R. Kipling. **la Ballade de l'Est et l'Ouest,** 1892).

فهل الشرق ـ الغرب هو الزوج ـ بالمعنى الديناميكي للكلمة ـ الذي يدور حوله العالم منذ آلاف السنين ؟ مهما يكن الحال ، لم يتوقّف التعارض عن تغذية تأملات أولئك الذين يريدون ، بكل وضوح وتحديد ، تجاوز آفاق حضارتهم الخاصة بهم .

VI . كل شيء حضارة

بعد مرور قرنين على استعمال كلمتي ثقافة وحضارة ، لم يتمّ التوافق في الفرنسية ولا في الانكليزية أو الألمانية أيضاً ، على معانيهما . فكلمة « ثقافة » يمكنها أنْ تدلّ على مجموعة معارف ، معتقدات ، تقنيّات ، أعراف وعادات في مجتمع ما . لكنّ الحضارة تعني الشيء نفسه . فإذا كان في الإلمانيّة حرصٌ على حصر كلمة حضارة بالمجتمعات التي بلغت مرحلة التنظيم الحَضَري والكتابة ، فإنَّ في الإنكليزية أولاً ، ثم في الفرنسيّة ، ميلاً إلى الخلط في نطاق هذين التسميتين ، بين كل الإبداع والعادات الروحيّة والماديّة الخاصة بكل جماعة بشريّة .

على هذا النحو يجري الكلام اليوم على « الحضارات الباليوليتية » (ف . هورس ، 1982) ، مثلما كان يجري الكلام على حضارات أفريقيا السوداء (بومان و سترمان ، 1947) ، على الأقل منذ أنْ صار ممكناً نقل مصطلح Kulturkreis (الحلقة الثقافيّة) في مدرسة ڤيينا الاتنولوجيّة « الانتشاريّة»

وتـــرجمتهـا بـ « حلقـــة حضـاريـــة » في الفـرنسيـــة و «Culture Area» في الانكليزية .

ولنلاحظْ أيضاً النزوع إلى إعطاء كلمة حضارة بُعْداً أكبر من كلمة ثقافة . فعلى الصعيد الإنساني ، سوف تستعمل الحضارة لأجل المجاميع الكبرى التي تنقسم إليهـا البشريَّـة : حضارة إسـلاميَّة ، حضـارة أوروبيَّـة ، الـخ . بينمـا ستُخصِّص الثقافة لوحدات محصورة بلغةٍ ، بشعب : ثقافة فرنسية ، عربيَّة ، الخ . ، دون أنْ يجري تحديد ذلك بشكل واضح . لأنه سيجري الكلام أيضاً على « حضارة فرنسيـة » ، أي اشتمال « الـظواهر الحضـارية » كـالمطبـخ ، الأعراف ، السكنى ، الخ . ، كل ما يصنِّفه الأنجلوسكسون في عداد « الثقافة الماديَّة » ، بينما هناك ميـل في الفرنسيَّـة إلى تصنيف بعض أبواب المعـرفة الفكرية في عداد الثقافة .

وبـالتالي يمكن لمصـطلح « الحضارة » أن يـظلَّ أجـدر بالدلالة على « مجموع الظواهر الاجتماعيَّة (الدينيـة ، الأخلاقيَّـة ، الجماليَّـة ، العلميَّة ، التقنيَّة) المشتركة في مجتمع كبير أو في جملة مجتمعات » (Petit Robert, 1973) .

بينما لا يمكن للثقافة أن تكون سوى « مجموع الجوانب الفكرية لحضارةٍ مـا » (المصـدر السـابق) . الأمر الـذي قد يقـودها حسبّـاً إلى التعـادل مـع الايديولوجيا : « مجموعة الأفكار ، المعتقدات ، والعقائد الخـاصة بعصـرٍ ، بمجتمع أو بطبقة » (المصدر السابق) .

من المفيد في هذا المستوى أن نشير إلى أن الجهل ـ مع الممنوعات والمحرّمات ـ هو نفسه حضارة بمعنىً ما ، لأنَّ علم المعرفة ، مثلاً ، كمعرفة (ورغبة أو عدم رغبة) الإفادة من مورد معدني ، نباتي أو حيواني معيّن ، هو سمـة حضـاريّـة : إنَّ حضـارة مجتمـع معيّن ، عـرق معيّن، تتضمَّن، أو لا تتضمَّن ، احتلاب المواشي التي تملكها . والأمر نفسه بالنسبة إلى الثقافة ، التي تنتمي إليها أو لا تنتمي إليها معرفة معيَّنة : إن معرفة حضارة معيَّنة لا تسمح بالعدّ أكثر من خمسة . .

وحين نعود إلى نظام الجماعات البشرية ، وليس إلى نظام حقيبة ابتكاراتها العقليّة ، نقول إن الحضارات تتوافق وتتطابق مع أكبر الوحدات المجتمعيّة . فهي قادرة ، في نطاق قارّة أو شبه قارّة ، على احتواء عدّة أعراق . وكل عرق داخل المجموع يعبّر بلسانه عن صيغته المحليّة « للإيديولوجيا »[1] المشتركة ، ويعبّر في حياته الماديّة عن صيغة ممارساته المشتركة . وهي صِيَغٌ يمكن وصفها أيضاً بصفة حضارة إذا أردنا أن نُدخل فيها الظواهر المميّزة لكل نظام ، ماديّ أو غير ماديّ ، وبصفة ثقافة إذا استندنا أساساً إلى الظواهر الفكريّة وحدها[2] . وفي داخل كل عرق ، لا تشكّل الوحدات المجتمعيّة المميّزة ، ذوات البعد الإقليمي أو المحلي ، القَبَلي الخ ، فيما بينها سوى تنوّعات صغرى من الثقافة الإثنيّة المشتركة . وهي تنوّعات ناجمة عن الإنغلاق الجغرافي أو التاريخ إلى حدٍ ما ، وأما التشكيلات الاجتماعية ـ الطبقات ، الطبقات المغلقة ، الخ ـ للخصائص فهي ناجمة عن مكانة كلٍ منها في المسار الانتاجي وفي مراتب السلطة والمعرفة .

والحال ، هناك ثلاثة مستويات رئيسة لتباين الثقافة ـ الايديولوجيا والحضارة الماديّة : المستوى المجتمعي الكبير للحضارات ، المستوى المجتمعي المتوسط للثقافات القوميّة ، المستوى ما دون المجتمعي للثقافات الفرعية المحلية (مناطق ، أعراق فرعيّة) أو الاجتماعيّة (طبقات) . « إنَّ ماركس إذْ ركّز بوجهٍ خاص على هذه الحركة الكوكبيّة التي تنبّأ بأهميتها واتساعها منذ البدايات الأولى ، إنّما انقاد إلى تجاهل التباين داخل الحضارات وبالتالي ربما انقاد إلى التقليل من أهميّة مكانة الخصائص القوميّة والإثنيّة » (G. Michaud, 1981, P.26) . وبعد ذلك ، جرى انقياد تلاميذه إلى المبالغة في التباينات المجتمعيّة الداخليّة : « إنّ كل ثقافة قوميّة تتضمّن ثقافتين وطنيّتين . هناك ثقافة روسية كبرى ، ثقافة آل بورشيكيفيتش وآل غورتشكوف وآل ستروفي ؛ ولكن هناك أيضاً ثقافة روسية كبرى مميّزة بأسماء تشرنيفسكي

---

(1) « اسمّي ايديولوجيا مجموع الأفكار والقيم المشتركة في مجتمعٍ ما »
(L. Dumont, 1977, P.16)

(2) «كل نطاق قومي يمكن اعتباره لوناً من ألوان الايديولوجيا العامة» (المصدر السابق، ص 17) .

وبليخانوف» (ف. ا. لينين، ملاحظات نقديّة حول المسألة القوميّة). إن هذه الأخطاء والأوهام حول الخطوط الحقيقية للانقطاعات الثقافيّة، هي التي تقف وراء كثير من تجاوزات الإيديولوجيّين والممارسين للعمل الاجتماعي، أو السياسي، ولا سيما أولئك الذين يتجابهون منذ قرنين حول مصطلحات القوميّة والاشتراكية وحول مفاهيم الخصوصيّة والشموليّة/ العالميّة. فالبشر، كل البشر، وكل إنسان، ينتمون إلى عدّة مستويات يعونها إلى هذا الحد أو ذاك. وهكذا، ينتسبون إلى شتى المنظومات الفكريّة والمسلكيّة التي تفرض عليهم قيمها وروابطها التضامنيّة الخاصة بها. إنّ كلاً من الحضارة والبشرية والإثنيّة والطبقة، ينتسبُ إلى هذه المنظومات أو تلك من عدّة جوانب ومن مختلف قطاعات ثقافته. وإن كل ايديولوجيا هي بالضرورة موسومة بسمة الأصل الجغرافي الإثني والاجتماعي للناطقين بلسان حالها.

وإننا حين نتناول الأجزاء الأربعة الأولى التي ظهرت من أعمال ماوتسي تونغ المختارة، وحين نحسب النسبة المئوية للمراجع الواردة فيها، نلاحظ[1] أنّ ماو كان يورد الكتابات التقليديّة الصينيّة أكثر مما يذكر أساتذته في الماركسيّة. فالكتابات الكونفوشيوسيّة والنيوكونفوشيوسيّة تمثّل 22٪ من الاستشهادات؛ فالمراجع الطاويّة أو الموويّة (Moïstes) (تمثل 12٪)، والخرافات الشعبيّة والآداب الصينيّة تمثّل 13٪، بينما لا تمثّل الاستشهادات بماركس وانجلز سوى 4٪، وبلينين 18٪، وبستالين 24٪، وعليه، إذا كنا من محبّي الصفات والنعوت، فمن الممكن أن نقول إنّ الايديولوجيا الماويّة (فكر ماو تسي تونغ) هي ايديولوجيا ستالينيّة ـ كونفوشيوسيّة أو هي طاويّة ـ كونفوشيوسيّة مطبوعة بطابع ماركسيّة ـ لينينيّة ـ ستالينيّة، وهي في كل حال ايديولوجيا ماركسيّة ـ صينيّة، الأمر الذي يبيّن أنّ الأفكار حتى عندما تكون ذات مطامح شموليّة كبيرة يمكنها الاحتفاظ بنكهة السجّل الثقافي، نكهة الحضارة التي صدرت عنها.

---

(1) V. Holubnychy, La dialectique matérialiste de Mao Tsé- Toung, Cahier de l'Herne, 1972, P. 91: Mao Tsé- Toung, Cité par F. Marmor, le maoïsme, PUF. Coll. «Que sais-je?», 1976, P. 46.

الفصل الثاني

الإطـــار الجغرافـيّ وإعمـــارُه

I ـ المعمـــورة ومتفرّعـاتهـــا

1 . علـم البيـئة البشريّـة

من المعلوم أنَّ تقسيم الحضـارات الكبرى يتـطابق تطابقـاً نسبيـاً مـع المتفرّعات القاريّة وشبه القاريّة الكبرى لليابسة . والواقع أنَّ البشرية لم تنتشر على سطح الأرض بشكل واحد ، بل استوطنت فيه على نحو غير متكافىء ، نظراً للموانع الطبيعية التي صادفتهـا ، والوسـائل التي اصـطنعتها هنـا وهناك للهيمنة على تلك المعوقات والموانع . زدْ على ذلك أنّ تلك « التحـدّيات » (Challenge) من جانب البيئة الـطبيعية هي التي حثّت ، في رأي تـوينبي ، روحيَّة وديناميكيَّة كل حضارة . وإذا كان الإنسانُ قد دلّل على امتلاكه قدرات تكيفيَّة مدهشة وبالغة التنوّع مع البيئات الأشدّ عداءً ، فإنَّ ذلك لم يَحُلْ دونَ قيام العقبات الكبرى ، الممثلة في المحيطات الهائلة ، والمرتفعات الجبلية الكبرى ، والمساحات الصحراوية الشاسعة والمجالات الجليديّة ، بوقف المدّ الرئيسي للبشرية وإرغامها على التوطّن أساساً في مواطن كبرى حيث كـانت ظروف الحياة أكثر مؤاتاةً لإقامتها . وهذه مواطن بالغةُ التنوّع من حيث مناخاتها (المعتدلة أو الـدافئة ، تفضيـلاً) أو من حيث منابتُهـا (غابـات أو براري ، تفضيلاً) راحت تستوطنها تباعاً ، كلّما اكتشفت بعضها .

على غرار كل جنس حيواني أو نباتي في الفلك الحيوي ، أي في البيئة الحيّة ، لم تنتشر البشرية بطريقة أو بشكل واحد ، بل تمركزت على نحوٍ غير متكافىء ، وفقاً للأعشاش البيئوية المؤاتية إلى هذا الحد أو ذاك لاستيطانهـا

المتتالي . وفي كل من هذه الأعشاش ، راح كلُّ جنسٍ يطوّر ، بالعزلة أو بالمحاكاة ، ظواهرَ تكيّفٍ وتخصّصٍ استطاعت ، من خلال تعميمها المحلّي ، التوصّل إلى أشكال من الاجتماع المتكامل المتوازن (وحدات حياتيّة نباتيّة ـ حيـوانيّة) وإلى منـظومات بيئيّة مستقرّة وحتى إلى تفـريعاتٍ لـلأجناس إلى منوّعات خاصّة ، يمكنّ التعرّف إليها من خـلال سُكناهـا وطرق معـاملاتهـا الجماعية وعلاقاتها بالجوار ، وحتى من خلال نموذجها الطبيعي . إلاّ أنّ هذه القواعد العامة لعلم البيئة لا تنطبق على البشريّة إلاّ بعد إجراء تصحيح كبير قوامه أنّ المجتمعات البشريّة ليست مجرّد نتاج ثابت للمحيط الطبيعي (التصوّر الحتمي) ، بل أنها تنتظم وفقاً لثقافتها التي تسمح لها بمقاربة هذا المحيط . وأنّ الثقافات المتنوّعة تظلّ في علاقات متبادلة إلى حدٍ مـا ، ولا تتوقّف من خلال الانتشار عن تبادل ابتكاراتها وعن دمجها في شتى منظوماتهـا الفكريّـة والحياتيّة .

2 . المعمـورة وغيـر المعمـورة

تمثّـل المعمـورة ـ أي « الأرض المسكـونـة » (في اليــونـانيــة gé Oikoumenè) تقريباً ثلثي اليابسة ، أي نحو 100 مليون كيلو متر مربّع من أصل 150 . وتستثنى من ذلك القفار الباردة (انتركتيك ، (القطب الجنـوبي) ، غـرونلانـد ، الشمال الكبيـر الأميركي والسيبيـري : 26 مليون كلم^2 والخط القُطري القاحل الكبير في العالم القديم ، الذي يمتدّ من الصحراء إلى غوبي Gobi (13 مليون كلم^2) والصحارى المدارية أو شبه المدارية في المناطق الصخرية والأند ، الناميبيّة والأوستراليّة (10 مليون كلم^2) . وذلك على الرغم من كـون جماعـات صغرى متنـوّعة ، بـاستثناء الانتـركتيك (منـاطق القطب الجنوبي) قد تكيّفـت تاريخياً مع الحياة من خلال الاحتكاك بتلك البيئات ، وأمّنت عبورها على نحو منتظم . فهذه المناطق ليست فـراغات بشـرية شبه مطلقة وحسب ـ لا معمورة مع عمران طفيف ـ ، بل شكّلت شاشات يصعب اختراقها بين المناطق التي استطاعت البشرية أن تحتشـد فيها . ومثـال ذلك السفوح الجبليّة الكبرى ، لا سيما تلك التي جمعت بين ضخامة كتلتها وتعرّج تضاريسها وبين الارتفاع الشاهق وقسوة الحرارة والجفاف اللذين ينجمان عن



شكل 2 ـ اللامعمورة



شكل 3 ـ قطاعات المعمورة الكبرى .

ذلك في منطقةٍ معتدلة . تضمُّ هذه الجبال الشاهقة بوجهٍ خاصٍ المنظومة الألبيّة ، الممتدة من جبال الألب إلى جبال الهملايا ، والحاملة على كتفها السفح التيبتي الهائل (4 مليون كلم^2). الذي يسدُّ وسط آسيا . وتتشابك هذه المنظومة الجبليّة مع الخط القطري القاحل الكبير في قلب العالم القديم وتزيد من انقسامه إلى شبه قارّات تفصلها حواجز ظلّت تمنع الحضارات من التلاقي لأمدٍ طويل .

في المقابل ، في المنطقة الاستوائية ، تقدّم المنظومات الجبليّة الكبرى هذه « الأراضي الباردة » أو « الأراضي المعتدلة » (tierras frias أو Tierras templadas في المكسيك) التي اجتذبت إليها استيطان الجماعات البشرية وتنقّلها ؛ سواءً كان ذلك في أفريقيا الشرقيّة أم في أميركا الوسطى أو الجنوبيّة . أخيراً ، هناك مناطق الغابات الكثيفة الاستوائية ، كشاشات أخيرة لتيّارات التجمّع البشري الكبرى : لا سيما غابة سلفا الأمازونية (5 مليون كلم^2) ، والغابة الغينيّة ـ الكونغوليّة (2 مليون كلم^2) ، وبعدهما الغابات الشديدة التوزّع من جرّاء التقسيم البحري والتضاريس ، والممتدة من جنوب شرق آسيا إلى غينيا الجديدة (2 مليون كلم^2) .

3 . أشباه القارات السبع (القارات الفرعيّة)

إن هذه المجالات الباردة ، القاحلة ، الجبلية العالية أو الغابيّة الكثيفة تقسّم الأراضي اليابسة ، المجزّأة من قبل في قارّات ، إلى مجاميع كبرى لأقاليم مؤاتية للاستيطان البشري أكثر من سواها ، بفضل ظروفها المُناخية (المعتدلة أو الحارّة) ، الجبلية (سهول ، سفوح ، الخ) ، والتي تشكّل المتفرّعات الكبرى للمعمورة : القارات الفرعيّة أو أشباه القارّات . وتكوّن هذه القارات الفرعيّة عدداً من التقاسيم المتماسكة نسبيّاً ، حيث استطاع جزءٌ من البشرية أنْ ينمو ويتطور ، لكنّها نادراً ما تكون منسجمة من الوجهة الطبيعية ، وغالباً ما تكون هي نفسها منقسمة إلى وحدات متمايزة من حيث مناظرها ومواردها المتاحة أمام المناشط البشريّة وباستثناء التضاريس الناتئة ، وهي مصدر عزلة ، فإنَّ المُناخ هو الذي يولّد التنوعات الكبرى داخل القارات

الفرعيّة . إذْ أنَّ المناطق المناخيَّة تأخذ القارة المأهولة مواربةً ، وتحدّد بموجب نظام الرياح وسقوط الأمطار عدداً صغيراً من الوحدات البيوجغرافيّة الطبيعيّة الكبرى ، أي المتسّمة بسماتٍ بيولوجية مشتركة تجد تعبيرها في اجتماع متوازن بين القطاعات الكبرى في العالم الحيوي (Biosphère) الأرضي : تربة ـ نبات ـ حيوان . إن هذه المجاميع البيوجغرافية أو (Biomes) الكبرى تتجسد في 11 شكلاً رئيساً لمناظر طبيعية ، صالحة نسبيّاً للاستيطان البشري ، ويمكننا تلخيصها بسرعة حسب تراتبها من الشمال إلى الجنوب . المنطقة القطبية وشبه القطبية تتميز بالبريّة القطبية (toundra) وبالغابة الشماليّة الصنوبريّة . وتمتاز المنطقة المعتدلة بالغابة ذات الأوراق ، بالبريّة فوق أتربة سوداء (السهوب الروسية ، البريّة الكندية ، پامپا Pampa) غير المرويّة كفاية في داخلها ، فكانت الطبيعة « المتوسطيّة » ناشفة عند الضفاف الجنوبية ـ الغربيّة للقارات ، وكانت الطبيعات « الصينيّة » بلا موسم جافّ ، وذات غابة مداريّة فرعيّة رطبة ، عند الضفاف الجنوبية ـ الشرقيّة . وتمتاز المنطقة المداريّة ، حسب الرطوبة المتزايدة ، بالصحارى الحارّة ، وبغابات الأشجار الشوكيّة ، بالسافانا ، والغابات النيّرة (« بسبب الرياح الموسميّة » ، الخ) . والغابة الكثيفة « المطيرة » ، الاستوائيّة .

هذه القارات الفرعيّة ، مع مجاميعها البيوجغرافية الأساسيّة ، هي :

ـ المجال المتوسطي ـ الأوروبي ، الغابيّ في الشمال والغرب . المتوسطيّ في الجنوب ، السهوبيّ في الجنوب الشرقيّ والممتدّ هكذا حتى قلب آسيا ؛

ـ المجال الشرقيّ الأقصى الجامع في مناخ موسميّ واحد ، وبتفاوتات طفيفة ، الصين الشماليّة ، كوريا واليابان ، المعتدلة ، إلى جانب الغابة المدارية الفرعية في الصين الجنوبية والغابات المدارية في شبه الجزيرة الهنديّة ـ الصينيّة ؛

ـ شبه القارة الهنديّة ، التي يحدّها غرباً الخطُّ القُطريّ الصحراوي ، وشمالاً جبال الحملايا وشرقاً سلاسل وغابات جنوب شرقي آسيا ، والتي تهيمن عليها الغابة الموسميّة ؛

ـ القوس الكبير المكوّن من الغابات الكثيفة ، السافانا ، ومن الغابات الافريقية

المنوّرة ، والممتد من الرأس الأخضر إلى رأس الرجاء الصالح ، مروراً بالبحيرات الكبرى ؛

– السهول الأميركية الشمالية الكبرى المكسوّة بالغابات أو بالأعشاب التي تصل إلى تخوم السفوح المكسيكيّة المعتدلة ؛

– المجمّع المتفاوت والمتواصل الذي يضم أراضي الأنديز المرتفعة ، والسفح المداريّ البرازيليّ والبراري المعتدلة ؛

– هوامش أوستراليا الشمالية (المداريّة) ، الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية (المعتدلة) .

ينبغي أن نلاحظ من جهةٍ ثانية أنّ هذه القارات الفرعية السّبع ، المكوّنة للمعمورة التاريخيَّة الحاضرة ، لم تشكّل إطاراً جامداً . فمنذ ظهور الكائنات البشرية الأولى في نهاية العصر الثالث ، كانت حياةُ الأرض تجري على إيقاع العهود الجليدية الخمسة التي تخللتها أربع حقبات ما بين جليديّة دافئة ، ميّزت القسم الأول من العصر الرابع – عهد الأرض الرابع Pléistocène – الممتدّ منذ 2 500 000 سنة حتى 8000 سنة قبل المسيح ، والذي شهد تعاقب الأعراق البشرية القبتاريخيّة . فكانت كل حقبة جليديّة تؤدي إلى تقليص المعمورة من جرّاء توسّع القِنن الثلجيّة والتجاويف الجليديّة ، ومن جرّاء البرودة العامة المصحوبة بجفافٍ كان يحصر المعمورة، بالنسبة إلى بشريةٍ تجهل استعمال النّار ، في مناطقها المدارية فقط . في المقابل ، كانت الحقبات ما بين الجليدية ، الدافئة ، والحقبات الممطرة – غير المعروفة تماماً – تولّد الظروف المؤاتية لتوسّع البشريّة نحو المناطق الأرفع من حيث المُناخ ومن حيث العلوّ . زدْ على ذلك أنّ الحقبات الجليديّة ، وخصوصاً الحقبة الأخيرة ، كان يمكنها حين جمَّدت قسماً كبيراً من ماء الأرض وجلّدته في الجلاّدات ، أن تخفض مستوى البحار بنسبة 200م ، الأمر الذي كان يُظهر عدّة ممرات أرضيَّة ، مثلاً ، بين القارّة الآسيويّة وأميركا واليابان وأندونيسيا وغينيا الجديدة وأوستراليا .

وينبغي التذكير بأنّ تموضع – أو اشتقاق – القارّات هو ظاهرة ذات حجم مختلف تماماً ، إذْ أنّه يطاول العصور الجيولوجية السابقة للعهد الرابع والتي لم يتمكّن الإنسانُ من أنْ يكون شاهدَها : فهو لم يعرف منها سوى ردّات فعلها

الزلزاليّة الناجمة عن حركة المراكز القاريّة المتواصلة . في المقابل تطوّرت النباتات والحيوانات البلديّة في خلال المراحل الأخيرة من ظهور القارات ـ العهود الأول paléozoîque ، والثاني أو mésozoîque ، والثالث أو cénozoîque ـ وتأثّر توزّع الأجناس على سطح الأرض تأثراً عميقاً من جرّاء ذلك . وهذا ما يلاحظه مثلاً علماءُ الحيوان الذين يُميّزون سبع مناطق جغرافية ـ حيوانية ، قاريّة ، كبرى : منطقتان معتدلتان ـ شمال آسيا الأوروبية (paléarctique) وأميركا الشماليّة (néarctique) ـ ، أربع مناطق مدارية ـ شرقيّة (آسيا الجنوبية ، الجنوبية ـ الشرقيّة والصين الجنوبيّة) ، أثيوبيّة (أفريقيا ما عدا المغرب) ، مداريّة جديدة (أميركا الوسطى والجنوبيّة) ، وأوسترالیزيّة (أوستراليا ـ أوقيانيا) . فضلاً عن منطقة أخيرة ، باردة : قطبيّة . والمناطق الثلاث الأخيرة يفصلها عن الأربع الأولى ، أعمق أخدود استمرّ حتى العهد الثالث . ولا تتطابق هذه المناطق البيوجغرافيّة تطابقاً تاماً مع قطاعات المعمورة ؛ لكنّها قد تساعد على تفسير الطريقة التي استوطن بها الإنسان ذاتُه في هذا المجال نفسه وتمكّن فيه من العيش في عدّة بيئات حيّة ، موجودة من قبل ، وبالتالي تساعدنا على المقارنة والربط بين البيئتين .

4 . العتبات أو المضائق الكبرى والطرق البحريّة الرئيسة

إن القارات الفرعيّة التي يمكن ، من باب التماثل ، مقارنتها بسبعة أعشاش بيئية كبرى ، استوطنتها البشريّة في عصور مختلفة ، إنما تربطها ـ أو تفصل بينها ـ مناطقُ انتقاليّة ، عتبات (معابر ، أودية ، برازخ ، مضائق ، الخ) ، لعبت دوراً رئيساً في تاريخ اتصالات الحضارات وشيوعها . وهذه العتباتُ هي :

ـ السهوب الأوروبيّة الآسيويّة الممتدّة من البحر الأسود إلى مونغوليا ، والتي سلكتها كل الغزوات التي اتجهت تارةً نحو أوروبا وتارةً نحو الصين ، وتارة أخرى نحو إيران والهند ؛ تحاذيها في الجنوب « طريقُ الحرير » التي تربط الصين بالشرق الأوسط عبر تركستان ، وتحاذيها في الشمال « طريق الشاي » التي تصل بين الصين وروسيا من خلال أطراف الغابة السيبيريّة ».

ـ الهضـاب الصحراويـة والممرّات في إيـران ، التي تربط البحـر المتـوسط بالهند ؛
ـ وادي النيل والممرّات الصحـراوية التي تصـل المتوسط بغـابات السـاڤانـا السودانية ؛
ـ أودية شبه جزيرة الهند الصينيّة التي سمحت بتـدفّق الشعوب الجبليّـة من الصين الجنوبيّة نحو الجنوب ؛
ـ مضائق الشرق الأندونيسي (خطوط فالآس وڤيبر من علماء الحيوان) ، التي عبرها منذ ثلاثة آلاف سنة أجداد سكان أوستراليا الأصليّين ؛
ـ مضيق برينغ Béring ـ الذي كان برزخاً آنـذاك ـ والذي عبـره في الحقبة ذاتهـا ، أولئك الـذين قدمـوا من آسيـا وشكّلوا فيمـا بعـد أرومـة الهنـود الأميركيّين ؛
ـ برزخ پاناما ومسبحة الأنتيل اللذان يربطان بين الأميركيّتين .

بالطبع ، تضاف إلى هذه الممرّات البرية أو شبه البريّـة ، كل الـطرق البحريّة ، طرق الملاحة السواحليّة أو عبر البحار والمحيطات ، التي سمحت بانتشار السمات الحضارية ، أولاً ، وسمحت في وقت متأخر بانتشـار الكتل البشرية . يكفي أن نذكر الطرق البحرية الأولى زمنياً في تاريخ البشر :
ـ طرق الرّياح والتيّارات الموسميّة التي تقود، صيفاً ، من أفريقيا الشرقيّة إلى الجـزيرة العـربيّة ، ومنهـا إلى الهند ، ومن الهنـد إلى أنـدونيسيـا ، ومن أندونيسيا إلى الصين ، وبالعكس في الشتاء ؛
ـ طريق التيار الاستوائي الجنوبي ، الذي يقود من أندونيسيا إلى مدغشقر ؛
ـ طريق تيّارات المحيط الهادي ورياحه ، المستعملة بشكل أساسي من الغرب إلى الشرق ، عَبْرَ كل برازخ هذا المحيط ؛
ـ طريق الصّابيات (Alizés) والرياح الغربيّة التي سمحت بالترابط المثلثي في الأزمنة الحديثة : أوروپا ـ أفريقيا ـ أميركا ـ أوروپا .

5 . الإعمار غير المتكافىء في شبه القارات واستعمار الأراضي البعيدة

إنّ الوقت الذي استغرقته مختلفُ الجمـاعات البشـرية لاكتشـاف هذه

الممرات والمعابر الأرضيّة ، ومن ثمّ لاستعمالها جماعياً ، إنّما يفسّر بسهولة الحياة البشريّة المحصورة في التقاسيم الكبرى للمعمورة . كما أنّ الكثافة السكانية المتفاوتة جداً في شبه القارات المختلفة ومناطقها ، التي جرى بلوغها تباعاً ، وامتلأت بالبشر شيئاً فشيئاً ، تُفسَّر عموماً بالعدد الضئيل لأوائل الوافدين ، الذين كوّنوا الأرومة الأوليّة . فهذه حين تزايدت ، إنما نزعت تدريجيّاً إلى الانتشار في المجال الجديد ، واستلزمت آلاف السنين للانتقال من استيطان خفيف إلى إعمار أكثف وأوسع . إنّه التزايد السكاني والإعمار الكثيف للأرض الذي حصل في المناطق الأكثر استقبالاً ، أو المناطق الأولى التي صادفها البشر ، والذي تركت مناطق واسعة غير معمورة ولا مأهولة كفاية ، وحتى أنه تركها خاليةً ولم يتوغّل فيها إلاّ في وقت متأخر .

هذا هو حال الطرق القارية المسدودة ، أطراف العالم هذه أو « الأراضي البعيدة » شبه الصحراوية التي كانت في الأزمنة التاريخية مكوّنة من طرف أميركا الجنوبيّة ، أفريقيا الجنوبيّة ، زيلندا الجديدة أو سيبيريا .

إن ظاهرة الإعمار البطيء جداً لهذه المجالات الكبرى اضطربت تماماً في العصر الحديث من جرّاء الهجرات الواسعة والحملات الاستعمارية المنظّمة والجبهات الريادية التي كانت تؤدي عمليّاً وبوجه عام إلى إحلال مجتمع من المزارعين الحضريّين محل جماعات متناثرة وغير مؤثرة في الطبيعة ، جماعات من الرعاة الرُّحل أو من الصّيادين الجوّالين . إنهم مستوطنون وروّاد ، أوروبيّون عموماً (أميركا الجنوبية ، أفريقيا الجنوبية ، أوستراليا ، زيلندا الجديدة ، سيبيريا) ولكنّهم آسيويون في بعض الأحيان (منشوريا ، اكزينيانغ ، هوكّايدو) . إن هذا الابدال المرتبط بانتشار الحضارة الصناعية هو الذي ينزع إلى إكمال مسيرة إعمار كل القطاعات الكبرى من المعمورة ، من خلال الانتصار التدريجي على العقبات الناجمة عن البرد والجفاف والعلو ، الخ .

II . المخزونات الانتروبولوجية الكبرى وتموضعها

1 . من الأعراق القبتاريخية إلى الإنسان الحالي

ظهرت الأعراقُ القبتاريخية ، البائدة اليوم ، أولاً في أفريقيا ، أي في منطقة حارّة . وكان البشر الأولون «préhominiens» متمايزين لكنّهم قريبون من القِرَدَة الأكثر شبهاً بالإنسان (ânthropoïdes) ؛ وكانوا موجودين في أفريقيا الجنوبية وقرب البحيرات الكبرى منذ الحقبة الأخيرة من العهد الثالث -le pliocène- منذ خمسة ملايين سنة تقريباً . إنّهم البشر الاوستراليّون (Australopithèques) ؛ الأقدمُ بينهمْ هو النموذج الضامر (البشر الاوستراليون الافريقيون) ، والآخرون من النموذج الصُّلْب (البشر الاوستراليون الأشدّاء في أفريقيا الجنوبية والانسان الزنجي في أفريقيا الشرقية) . وهم أولئك المسؤولون عن الحضارات الأولى التي ظهرت في نهاية العهد الرابع (البليستوسين الأدنى) منذ قرابة 000 300 2 سنة ، والتي تقوم على صقل الحجارة والحصى الملساء (choppers de la Pebble Culture) والعظم ، حضارات وادي أومو (Omo) ، أولدوفاي (Olduvaï) الخ ، التي تشكّل العهد الباليوليتي القديم . ومنذ 000 800 1 سنة ظهر ، إلى جانب البشر الأوستراليين ، الإنسان اللابس (Homo habilis) ، الممثل الأول للجنس البشري (الإنسان) المساهم في تلك الحضارات ذاتها حيث شوهد للمرّة الأولى تقسيم للمناشط الرجوليّة (صيد) والأنثوية (رعاية الصغار الخ) .

ثم وُلدت ، مع الإنسان الأول أو الإنسان القديم ، ما قبل الإنسان العالِم (Présapiens) ، منذ 000 300 1 سنة حضارات العصر الباليوليتي الأدنى ، القائمة على الأسلحة الصوانيّة (Archeuléen) واستعمال النّار (Moustérien) الذي سيسمح للإنسان بالتكيّف مع المناخات الباردة والمعتدلة وبالتالي سيسمح له ببلوغ أفريقيا الشماليّة (الإنسان الأطلسي) وأوروبا والهند وأندونيسيا («Pithécanthropes») والصين («Sinanthrope») .

مع الشّكل الأول للإنسان العالِم (الإنسان العالم النياندرتالي أو الپاليانرثروبي) ، وُلدت منذ مليون سنة تقريباً ، في عصر الحقبة الجليدية

الأخيـرة (Würm) حضـارات العصـر الپـاليـوليتي الـوسيط التي اكتشفت في أفريقيا ، في أوروبا كما في آسيا ، مع المدافن الأولى . وفي غضون التجلّد الأخير هذا ، منذ 000 35 سنة ، ظهر أيضاً الشكل الثاني من الإنسان العالِم ، نعني الإنســان العـالِم العـالِم ، أو النيـانتــروبي ، أي الإنســان الحــاليّ ، الـذي سيبتكـر حضارات العصـر الپاليـوليتي الأعلى ، القـائمـة على أدوات وآلات متنـوّعـة ، وعلى ظهــور الفن (Magdalénien, Solutréen, Aurigancien) ، والتي ستقضي على النياندرتاليّين .

2 . الحاجز الجليدي وتباين ثلاث أرومات من الأعراق الحاليّة

في حقبة ذلك التجلُّد الوُرمي (Wurmienne) الكبير ، التي كانت أطول حقبة (من ـ 000 100 إلى ـ 000 12) ، كـان العالمُ المأهولُ أكثر بـرودةً وأكثر انقساماً مما هو عليه في أيامنا ، نظراً لاتساع الجليد . فلم يكن نصف أميركا الشمالية وشمال أوروبا وسيبيريا مغموراً بالجليد وحسب ، بل كان قسم كبير من سلاسل آسيا الوسطى والمنظومة الألبيّة مغطىً بالجليد أيضاً . وكان ذلك يعزل بشكل خاص القطاعات الثلاثة من المعمورة في أوروبا ـ آسيـا : القـطاع الشّرقي الأقصى مـا بين هذه الســلاسل والمحيط الهـادىء ، القطاع الأوروبي ـ الآسيوي بين هذه السلاسل والبقعة الجليديّة الأوروبيّة الشماليّة ، والقطاع الهندي جنوب هذه السلاسل بالذات ؛ وفي المقـابل ، يتصـل هذا القطاع الأخير بسهولة كبيرة مع القطاعات المتوسطيّة ، الافريقية والأوستراليّة ، لأنّ ردّةَ فعل تجميد الكتل المائيّة في كتل جليديّة كان قد أدّى إلى انخفاض في المستوى البحريِّ بحيث أنَّ عدداً من المضائق الحالية كانت برازخ (مضائق باب المندب ، البوسفور والدردنيل ، الپادِكالي ، مالآكا ، السوندا ، كوريا ، برينغ ، طورس والباس) .

إن هذا التقسيم لأوروبا ـ آسيا إلى ثلاث مناطق بيئية معزولة نسبيّاً ، هو الذي استطاع أنْ يسمح بتطور تبايني لنماذج طبيعيّة في كل منها ، انطلاقاً من أساس مشترك غير متمايز ؛ وهذاالتطور هو على ما يبدو (هـ . ڤالوا ، 1967) في أساس تقسيم البشرية الحاليّة إلى ثلاث جماعات عرقيّة كبرى .

ـ في القطاع الشّرقي الأقصى ، « البشر الشرقيّون » ذوو الجلد الخفيف الخِضاب ، أرومة الأعراق الصفراء ، أو Xanthodermes ، بشَعْرٍ متيبّس جاف ، وأنف متوسط مع رأس قصير ؛

ـ في القطاع الأوروبي ـ الآسيوي ، « البشر الغربيّون » ذوو الجلد النّقي ، والشّعر المتموّج ، مع أنف ضيّق ورأس مستطيل ؛ وهم أرومة الأعراق البيضاء أو Leucodermes ؛

ـ في القطاع الهنديّ ، « البشر الجنوبيّون » ذوو الجلد المُخضّب والشّعْر المجعّد أو المُوبر ، مع أنف واسع ورأس مستطيل ، وهم أرومة الأعراق السوداء أو Mélanodermes .

3 . انتشار الأعراق الكبرى الحاليّة

تمايز البشر الشرقيّون محليّاً وانقسموا إلى ثلاثة أعراق مونغوليّة : العرق المونغولي الشمالي ، وهو النموذج الأبرز (مع المونغوليّين) ، والعرق المونغولي المتوسط المتطابق مع أكثرية سكان الصّين ، والعرق المونغولي الجنوبي (أو الپاليومونغولي ، الپاري paréenne) الذي يشغل كل جنوب شرق آسيا ؛ وفي الجنوب ، في المقابل ، يبدو أنّ البشر قد ظلّوا أقرب إلى النموذج البدائي غير المتمايز : عرق ماليزي قديم أو نيزوي أو أندونيسي ، يمثّله الجبليّون في الهند الصينيّة وأندونيسيا . لكنّ هذا العنصر سرعان ما شهد ، بعد ذلك ، انضمام عناصر محليّة إليه ، أدّت في الأرخبيل إلى ظهور عرق ماليزي سُمي لذلك باسم العرق الديتريو ماليزي ؛ وتكوّنَ الطرفُ الجنوبي ـ الشرقي للمجال « البشري الشرقي » من البوليتزيّين الذين يمثّلون عرقاً أصفر آخر ، غير متمايز إلا قليلاً جداً . وفي الشمال الشّرقي عَبَرَ البشر الشرقيّون البرزخ ـ المضيق المعروف باسم Béring على موجاتٍ متتالية ، معظمها سابقٌ لتمايز الأعراق المونغولية ، الأمرُ الذي يفسّر ذلك التمايز الطفيف في المزايا المونغولية لدى الهنود الأميركيّين ؛ وكان الاسكيمو (inuit) ، القادمون الأخيرون ، هم وحدهم القريبين بشكل بارز من النماذج المونغولية . أخيراً ، في الشمال



شكل 4 ـ الانتشار المحتمل لأرومات الأعراق الحالية الثلاثة الكبرى انطلاقاً من العصر الجليدي (حسب هـ . فالوا) (السواحل في أقصى حدود التوسع الجليدي وبالتالي في أدنى مستوى بحري) .

الغربي ، توغّل البشر الشرقيّون في سيبيريا وحلّوا فيها محل البيض الموجودين قبلهم ، أو اختلطوا بهم ، مكوّنين العرق السيبيري (أو الپاليو سيبيري) .

لقد انتشر « البشر الغربيون » أولاً في اتجاه أوروپا ، حيث كان الجليد يتراجع وحيث كانت طلائعهم (أعراق كرو ـ مانيون ، شانسلاد ، الخ) قد أبادت النياندرتاليّين ؛ وحيث ظهرت بعد ذلك الأعراقُ الحاليّة : العرق المتوسطي أولاً ، الحاضر في كل حوض البحر المتوسط وحتى الصحراء ، والعرق الشمالي وكلاهما مميّزان برؤوس مستطيلة ، ومتحدّرات على التوالي ربّما من الأعراق الشانسلادية والكرو مانيونيّة ؛ ثم الأعراق الألپيّة ، الديناركيّة والأوروپية ـ الشرقيّة ، المتولّدة من المسار الحديث في أوروپا ، الثابت والمُبهم في آن : مسار قِصَر الرأس . كما انتشر البشر الغربيّون في كل الشرق الأوسط ، وصولاً للهند ، مع أعراق بعضها ذو رأس مستطيل قريب من العرق المتوسطي ـ الجنوبي ـ الشرقي أو العربي والهندي ـ الأفغاني أو الهندي ـ الشمالي ـ وبعضها الآخر ذو رأس قصير ، متمّم للمجموعة الألبيّة ـ الديناركيّة : الأعراق الأناضوليّة أو الأرمنية ، والطورانية (في تركستان السوفياتية والصينيّة) . أخيراً ، كانوا قد تغلغلوا في سيبيريا وصولاً إلى المحيط الهادىء ، قبل الأعراق الصفراء التي حلّت محلهم ، مخلّفة وراءها الآينوس (Aïnous) في اليابان كجزيرة وحيدة من أرومة العرق الأبيض (leucoderme) .

ومن الهند ، انطلق البشر الجنوبيّون في موجات متعاقبة ، وأبادوا النياندرتاليّين . تمثّل الموجاتُ الأولى النماذج الأكثر قدماً ، غير السوداء حقاً ، التي تدفّقت نحو الجنوب (الڤيدا في سري لانكا) والجنوب الشرقي (سكان أوستراليا الأصليّون) . وتتوافق الموجاتُ التالية مع الأعراق السوداء التي ظهرت لاحقاً : الميلانو هنود (أو الهنود الجنوبيّون) ، السود غير الزنوج ، الذين مكثوا في شبه الجزيرة ، ثم فرع شرقي حمل الملانيزيّين إلى أوقيانيا ، والزنوج ، الملوّنين في جزر اندامان ، ماليزيا والفيليبين ؛ أخيراً ، فرع غربي حمل الخوزانيين (البوشيمان) المشابهين جداً للأعراق الصفراء ، والزنوج

(الملونين) والميلانو الأفارقة (عرق زنجي أفريقي) ؛ وهكـذا ربما يصعب القول ما إذا كان العرق الأثيوبي يمثل شكلاً مختلطاً من الأعراق المتوسطيّـة والأفريقية أو يمثل شكلاً سابقاً لهذه التمايزات .

إن الظهور الحـديث للمخزونـات الثلاثـة للإنسـان العالم ـ الأصفـر ، الأبيض والأسود ـ في القطاعات الثلاثـة الكبرى ، الشمـالية من المعمـورة ـ القطاع الصيني ، الأوروبي والهندي ـ ، قد تلاه انتشار قبتاريخي أول قاد تلك المخـزونات إلى أن تشغـل منفصلة أو مجتمعة ، مجمـل المنـاطق الممكن بلوغها . فالأعراقُ الصفراء ، المستقرّة بقوّة في المجال الشرقي الأقصى ، ومن ضمنه جنوب شرق آسيا ، احتلت فضلاً عن ذلك الأميركيتين وبولينيزيا ، مع الأعراق القبمنغولية ، التي خرج منها الهنـود الأميـركيّون ، والبـولينيزيـون ، وأخيـراً اجتلت سيبيـريـا ، وظلّت الأعـراقُ البيضـاءُ في المجـال الأوروبي ـ المتوسطي وصولاً إلى الصحراء ، وجرى إخراجها من سيبيريا ؛ لكنها احتلت الهنـد التي تقاسمتهـا مع العـرق الهندي الأسـود . أخيراً ، احتلت الأعـراقُ السوداءُ الهندَ وقطعتين من أوقيانيا (أوستراليا وملانيزيا) وكل أفريقيا الجنوبيّة الصحراويّة .

4 . الهجرات الحديثة وكليّة حضور الأعراق البشريّة

لكنّ هذا التوزيع ، الناجم عن تموضع قبتاريخي ، جرى تعديله تعديلاً قوياً من خلال الهجرات الحديثة الواسعة : استعمار ، تجارة العبيد ، « قيام » الحمّالات (Coolies) الآسيويّة .

إن السكان ذوي الأصل الأوروبي هم الآن أكثرية واسعة جداً في كل أميركا الشماليّة وسيبيريا وأوستراليا وزيلندا الجديـدة . أما السكـان الزنـوج ـ الأفارقة فهم يشكّلون جماعات أقلويّة كبرى في أميركا الشمالية والجنـوبية ، وهم أكثرية غالبة في الكاريبي . وهكذا ، فإن شبه قارّة ، مثل أميركا اللاتينية ، تمثّل في كل من مناطقها مقداراً مختلفاً من هذه العناصر الأساسيّة الثلاثـة : العنصر الهندي الأميركي ، الأوروبي أو الأفريقي . أخيراً ، هناك حـدٌّ أقصى من الكثافة تقدّمه الجزرُ التيَ أدّى فيها الاقتصـاد الزراعي القـديم إلى تراكم

المساهمات البشرية ، الأوروبية والأفريقية والآسيوية : الآنتيل ، ماسكارين ، فيجي ، هاواي ، الخ .

يدلُّ هذا الاستعداد للحضور الكلي لكل عرق بشري ، يجد نفسه الآن موزّعاً في عدّة أجزاء من المعمورة ، على أنّ من الممكن تشبيه البشريّة بالأجناس الحيّة الأخرى ، التي أدّى التطور في صفوفها إلى توليد أنواع فرعيّة أو تنويعات ، ذات سمات بارزة جداً ومتكيّفة فقط مع الأعشاش البيئية التي تكوّنت فيها . ففي صميم البشرية نجد ، من جهة ، وبوجه عام مجموعة أشكال انتقاليّة مشتركة بين المتفرعات العرقيّة الكبرى ، بعضها سابق للتمايزات وبعضها الآخر لاحق ومتكوّن من جراء الاحتكاك والاتصال . ونجد من جهة ثانية ، أن الانتشار التاريخي للأعراق البشرية يدلُّ على أنها خليقة بالتكيّف مع البيئات الطبيعية الأخرى ، غير تلك التي ولدت فيها ، فالإنسان لا يخضع للحتميّة الطبيعية حتى وإن كان تكوينُ مختلف النماذج مشروطاً ، ولو جزئياً بشروط المحيط . والأجناسُ الحاليّة التي لا تشكّل سوى تنوّعات لجنس فرعي واحد (الإنسان الحديث ، **الإنسان العالِم ـ العالِم** ، المتحدّر من الجنس **العالِم** من النوع الإنساني Homo) لم تنفصل عن بعضها بأي حاجز تناسلي ولا بيئي ولا ثقافي ، استحال عليها اختراقه .

الفصل الثالث

التباين الخارجي للحضارات ووحدتها الداخلية

I . مما قبل التاريخ إلى التاريخ

1 . نهاية العهد الجليدي وما قبل التاريخ

بعد التطور البطيء للعهد الپليستوسني ، الممتد على 000 500 2 سنة ، الذي شهد حلول بشر العهد البليوسني الأوائل (نهاية العهد الثالث) محل شتى أنواع الجنس البشري (Homo) ، ستشهد نهايةُ التجلُّد الأخير ، مع ظهور (منذ 000 35 سنة) وتفوّق الإنسان الحالي (الإنسان العالِم ـ العالِم) ، تكاثرَ وتنوّع الابتكارات الثقافية المولِّدة لحضاراتٍ جديدة . ففي معمورةٍ ، هي الأولى من حيث امتلاؤها بالسكّان ـ ومن ضمنها أميركا وأوستراليا ـ ، ويسود فيها الإنسانُ الحالي وحدَه ، سيقوم هذا الإنسان بسلسلة كبيرة من الاختراعات التقنيّة المتقاربة ، المكوّنة لظاهرة تراكميّة جديدة في نوعها ، ستؤدي في عدّة آلاف من السنين إلى خروج المسكونة من مرحلة ما قبل التاريخ . إنّ نهاية عصر ورم (Wûrm) الجليدي ، نحو000 8 سنة ق.م ، تسجّل الانتقال من الطابق الپليستوسني إلى الطابق الهولوسني (العهد الرابع الحديث) . ونحو التاريخ ذاته انطلق النيوليتي ـ أي عصر الحجر المصقول ـ الذي تلا العهد الپاليوليتي .

كان العهد الپاليوليتي الأعلى قد شهد ازدهار الأشكال الفنيّة ، لا سيما الفنُّ الجداريّ (المجدليّ) . وكان العهد المزوليتي يعلن منعطفاً ، مع ظهور الفأس والمعول والقوس ، وتدجين الكلب ، وتجارة بعض المواد الأوليّة

(الصوّان ، السَّبَج) : منعطف يبدأ نحو العام 10000 في الشرق الأوسط ، ويمتدّ في أوروبا حتى العام 4000 . لكنّ الشّرق الأوسط نفسه كان في خلال ذلك الوقت يضمُّ مصر والهلال الخصيب (فلسطين - سورية - بلاد الرافدين) ويؤكّد ذاته بوصفه المركز الإبداعي الأساسيّ .

فمن هناك ، انطلقت « ثورة » العصر النيوليتي ، التي جعلت إنسانية المعمورة تنتقل مما قبل التأريخ (القنص ، الصيد ، القطاف) إلى الاقتصاد الانتاجي ، الذي يتجسّد في تدجين الحيوانات والنباتات - تربية المواشي والزراعة - المكتمل في فنون صناعة الخزف والحياكة والنسيج وظهور التجمّعات القرويّة الأولى : أريحا في فلسطين ، في الألف الثامن ، ساتال هيوك في الأناضول في الألف السابع[1] . شاعت حضارة الفلاحين المتمدنين عبر أوروبا وإيران ، في الألف السادس والخامس ، عندما ظهرت في الألف الخامس سلسلة ابتكارات أخرى رئيسة ، لا سيما في الشرق الأوسط : الرّي الذي سمح في سهول ما بين الرافدين ، بالزراعات الدائمة ، وليس فقط تحت المطر ؛ والدولاب والشّراع وصهر النحاس ، أول عمليّة تعدين مميّزة للعصر الشالكوليتي (الذي جمع بين النحاس والحجر) . في الألف الرابع ظهر في أوروبا البناء بالحجر ، مع الميغاليّة غرباً ، وصنع الذهب شرقاً . وبدوره امتد العهد الشالكوليتي في الألف الرابع والثالث ليشمل مصر ، أوروبا ، إيران ، وتبعه مباشرةً تعدينُ البرونز , النحاس والقصدير) وتعدين الحديد .

2 . وتيرة ظهور الابتكارات تتجاوز سرعة انتشارها : تكاثر الحضارات

في تلك الفترة ، كانت البشريّة عند منعطف كبير : نظراً للتعاقب السريع للابتكارات والاختراعات ، سيتمكّن نمطُ الحياة من التبدّل محليّاً بسرعة ، غير أنَّ انتشار تلك الابتكارات في الخارج سيتبع تلك الوتيرة

---

(1) في الألف السابع كان قد ظهر في أوروبا ، عند أبواب الحديد المهيمنة على الدانوب ، تجمُّع مثل تجمّع لپنسكي ڤير الذي بقي في مرحلة سابقة ، مزوليتية (أو اپيپوليتيّة) ، (قنص ، صيد ، جمع محارات ، حياة متداخلة ومتفاعلة مع النجيليّات وبعض الحيوانات) ؛ ولكنّه شهد ظهور عمارةالمعابد ونحت الآثار التذكارية (بالحجر) .

بصعوبة . كان العصر الپاليوليتي قد تميَّز في بداياته بانتشاره الشمولي . ولكنْ بعد ذلك ، لن يتعدّى الهند كثيرٌ من الابتكارات التقنولوجية المتحقّقة في أفريقيا والشّرق الأوسط ، والشرق الأقصى ؛ إلا أنّه ، في المقابل ، سينتشر في المجال المتوسطي ـ الأوروبي ـ الآسيوي . مما جعل غزاة أوستراليا ، في حقبة التجلّد الأخير عندما انتشر في أوروپا العصر الپاليوليتي الأعلى ، لا يجلبون معهم سوى أدوات من العصر الپاليوليتي الأوسط .

اعتباراً من العصرين المزوليتي والشالكوليتي لن يتاح للابتكارات المتتالية الوقت الكافي لكي تنتشر بشكل أحديّ ، إذْ سيتمُّ الانتشارُ في دُفعات وموجات متعاقبة لن تلامس سوى هذا الجزء أو ذاك من الإنسانيّة ، الممكن بلوغها أو المنفتحة على التبدّل .

بينما كانت حضارات الپاليوليتي تتعاقب وتنزع نزعةً تفاعليّة ، ستكون حضاراتُ النيوليتي والتاريخ اللاحق حضارات متزامنة ومحليّة . وسوف تتطور تطوراً متوازياً مع عناصر ، بعضها مشترك وبعضها الآخر خاص . وستتعمَّق الاختلافات والفروق بين شتى متفرّعات الإنسانية التي لن يفسح لها المجال الكافي لبلوغ الشمولية والعالميّة .

فمن جهة ، سيُرى تمايز حضارات تتطور بشكل مستقلّ ، في قطاعات متمايزة من المعمورة لدرجة أنّها ستطبعها بطابعها الأصيل نظراً لأنها لا تقيم فيما بينها سوى روابط غير متينة غالباً . ومن جهة ثانية ، ستتعمق هوّةٌ بين هذه الحضارات الكبرى المتطوّرة تاريخياً والتراكمية تقنولوجياً ، وبين الحضارات التي ظلَّت أمينةً لمرحلة انتاجية وتنظيميّة سابقة ، والتي سوف تتهمَّش ، وتُترك خارج التطور ، خارج الحضارات المُسمَّاة ، حضارات عليا . فقد ولدت من أنماط الحياة النيوليتية ومن التعدين حضارات تاريخية شتّى ، ستشهد التطور الحَضَري والكتابة . وهذه علامة اصطلاحية من علامات الدخول في التاريخ . لكنَّ الجماعات التي « قفزت » من قطار التاريخ هذا ، ستكون كثيرة ، لتبقى جامدة على طريق مرأب (كاراج) ، في مرحلة سابقة : مرحلة القطاف والقنص بينما كانت تولد الزراعة ، وكانت الزراعة الغذائيَّة تكتمل في أماكن أخرى ، الخ .

وبالتالي ، سيكون بعد الپاليوليتي تفريدٌ متواصلٌ للزراعات والثقافات ، التي سيظلّ بعضها جامداً ، وسيتطور بعضُها الآخر بسرعة نسبيّة ، ويمضي قُدُماً إلى هذا الحد أو ذاك ، وفقاً للكيفيّات الخاصة . صارت الحضارات كثيرة واستمرّت كذلك ، سواءً ، من حيث مضمونها (المركّب والمكتمل نسبيّاً) أم من حيث شكلها (الذي يعود إلى الصيغ المحليّة للابتكارات المشتركة) .

إن تمايز الحضارات هذا هو ظاهرة ثقافية بوجه خاص ، أي ناجم عن العقليّات الجماعية في شتى المجتمعات ، وليس ناجماً عن الطبيعة: لا عن طبيعة الإنسان التناسليّة ، الذي ينتسب الآن ، في كل مكان ، إلى النّوع العقلي نفسه (Sapiens) ، ولا عن المحيط الطبيعي الذي جرت الهيمنة على ضواغطه ومعوقاته في كل مكان ويشكل أحسن فأحسن . فالبيئة التي ستظهر أنّها أكثر إعاقةً هي البيئة البشرية : الكل المجتمعيّ مع تقاليده ، بناه الفكرية ، مواقفه المتناقلة عبر الأجيال والتي تنزع إلى تكوين نوع من الصلابة الثقافيّة/ الاجتماعيّة . انطلاقاً من ذلك الحين ، سيدور النمو اللامتكافىء للحضارات والشعوب حول استعدادهم المتباين للقيام بابتكارات أصليّة ولاستقبال الاختراعات الآتية من الخارج ، ولدمجها معاً في تركيباتهم الثقافية/ الاجتماعية الخاصّة بهم .

في الألف الرابع ، شمل العصر النيوليتي أوروپا والشرق الأوسط حتى الهند ، وظهر (من خلال آسيا الجنوبية أم من خلال السُّهوب ؟) في الصين ، وحتى ، وبطريقة داخليّة محليّة ، في أميركا الوسطى والجنوبيّة . ولكنْ في الألف الثاني أو الثالث التاليين ، سيشمل تعدين النحاس والبرونز والحديد ، بشكل غير متكافىء ، المجال نفسه ، ولن يشمل أميركا إطلاقاً ، التي ستجهله حتى وصول الأوروپيين إليها .

3 . الحضارات التاريخيّة الأولى

في الألف الثالث تكوّنت ، مع المُدن الأولى ، أولى الدول والممالك ، في وادي النّيل ، وبلاد الرافدين ، ثم في كريت وفي وادي الهندوس . هناك ستولد حضارات عديدة ، لكل منها كتابتها ، الأمر الذي سيعادل وصفها

بالحضارات التاريخية . بينما في الفترة نفسها ، في غرب أوروبا حيث يتطور بشكل خاص تعدينُ البرونز ، ظلّت حضارة الميغاليين ، بلا مدن ، بلا دولة ، بلا كتابة ، تواصل انتماءها إلى ما قبل التاريخ . ففي الصين ، ظهرت أول دولة ذات سلالة تاريخية ـ سلالة شانغ ـ في منتصف الألف الثاني ، مع شكل كتابتها . وفي العصر ذاته ، عند ضفاف خليج المكسيك ، وُلدت الحضارة الأولمية (Olmèque) ، « ما قبل الكلاسيكية » ، أم كل الحضارات الكلاسيكية المزوأميركية التي ستستلهم بوجه خاص من اهراماتها وتماثيلها وحروفها (كتابتها) وسوف تجهل ، مثلها ، الدولاب والتعدين .

وفي مجرى الألف الأول تطوّرت في الأنديز الحضارة الشافينية (Chavin) المعترف بها بوصفها المرحلة التكوينيّة لسلسلة الحضارات الأميركيّة ـ الجنوبية التي ستشهد النموّ الحَضَري والامبراطوري ، ولكنها ستجهل ، مثلها ، ليس فقط الدولاب والتعدين ، بل الكتابة أيضاً .

وهكذا ، فإنَّ العصر النيوليتي الذي ظهر قبل ذلك فقط بأربعة أو خمسة آلاف سنة قد أدّى في غضون الثلاثة آلاف سنة السابقة ، وفي كل من تقاسيم المعمورة الرئيسة إلى نشوء بؤرة حضارية أكثر تقدماً وانتظاماً حول أماكن العبادة الجماعية ، ثم حول المدن التي ولدت فيها الدولة . الدولة التي ستأمر بتنفيذ الأشغال الضرورية الكبرى من خلال استعمال المياه وبناء المراكز الاحتفاليّة وسواها ، وسوف تعزّز قسمةَ العمل وتضمن قسماً من الانتاج الاقتصادي لبعض الفئات وتحمي ثقافةً مجسَّدة في الكتابة . وانطلاقاً من هذه البؤر الخمس ـ البحر المتوسط ـ الشرق الأوسط (بلاد الرافدين ، مصر ، كريت) ، الهند ، الصين ، المكسيك ، البيرو ـ سوف تمتدّ الحضاراتُ المدينيّة تدريجيّاً في القطاعات الأربعة من المعمورة المطروقة بسرعاتٍ متباينة . ومنذ القرن الثالث ق . م . سوف تنصهر الحضارات الشرق أوسطية في حضارة هلنيّة واحدة ستشمل كل البحر المتوسط ثم أوروبا ، حين غدت رومانيّة سياسياً ، ثم مسيحية روحيّاً . والهند ستشهد ، بعد كسوف غامض في الألف الثاني ، انطلاقة جديدة للحضارة في الألف الأول وسوف تمتدّ نهائياً لتشمل شبه القارّة بأسرها . أما الصين فسوف تتوحّد ثقافياً وسياسيّاً منذ نهاية الألف الأول ق . م . إنّ كل وسط

البرزخ المزو أميركي سوف يُغطّى منذ بداية الألف الأول من عصرنا ، بسلسلة حضارات منحدرة من حضارة الأولميين (Olmèques) . وعلى ما يبدو أيضاً ، كل وسط المنطقة الآندية ، انطلاقاً من الحضارة الشاڤينيّة .

II . تباين الحضارات ، تلاقيها ووحدتها

1 . الحضارات اللاتاريخية المهمّشة

هناك مناطق واسعة جداً ستبقى لأمد طويل خارج الحضارات التاريخيّة : إنها مناطق قليلة السكان لأنّها ظلّت في مرحلة تقنولوجية ذات مردود منخفض ولا تسمح بتراكم الاحتياطيّات ولا بزيادة السكّان . مناطق تقطنها مجتمعات متمسّكة بالاقتصاد القنصيّ (قطاف ، قنص ، صيد أسماك) أو بزراعة فقيرة (جوّالة وذات عدّة قليلة) أو برعي المواشي .

وهكذا ، في الأميركيّتين ، خارج السفوح المكسيكيّة والپيرونيّة حيث ستولد الحضاراتُ المدينيّة ودولها ، ستواصل مجتمعاتُ مزارعين منتظمين في قرى ودساكر أو في قبائل ، احتلال الغابات بين المسيسيبي والأطلسي والسواحل الشماليّة الغربية وسفوح الكولورادو وأراضي البرزخ المنخفضة ، الآنتيل ، شمال الآنديز وجنوبها ، آمازونيا ، والسفوح البرازيلية ، بينما السواحل القطبية الشماليّة ، الغابة الكندية الكبرى ، البراري والسهول الكبرى ، سلاسل وأحواض المناطق الصخريّة ، الصحارى المكسيكية ، الشاكو ، الپامپا والپاتاغونيا ، ستبقى معبراً لشعوب شتى من القنّاصين وجامعي الثمار والحبوب .

أما شمال القارّة الأوروبية ـ الآسيوية ، فسوف يبقى مع السُّهب القطبي (La Toundra) والغابة الشماليّة الكبرى ، عملياً حتى في أيامنا هذه ، مجالَ قبائل رعاة الأيائل والصيّادين والقنّاصين ، بينما في السُّهوب الممتدّة من الدانوب إلى بحر الصين ، ستظل تتنقّل الشعوبُ التي ستتوجّه ، من بلاد السكيت إلى بلاد المغول ، في خلال عدّة آلاف من السنين ، تارةً نحو أوروپا وتارة شطر الشرق الأوسط وإيران والهند ، وتارة أخرى نحو الصين .

بين الصّين والهند ، تلعب الكتلة الجبليّة التيبتيّة الهائلة وسلاسل شبه جزيرة الهند الصينيّة المكسوّة بالغابات دور الشاشة العازلة وسوف يُستفاد منها لسُكنى الشعوب الجبليّة التي ستتلقّى في آنٍ تأثيرات الحضارتين الكبيرتين التي تفصل هذه الكتلة بينهما .

إنّ الصحراء الجافّة منذ الألف الرابع ، والواقعة في جنوب المجال المتوسطيّ ـ الشرق أوسطي ، صارت عقبة كأداء ولكنّها كانت مع ذلك ممراً ومعبراً للرّحل الكبار الذي سيلعبون دور صلة الوصل مع أفريقيا السوداء .

وعلى التوالي تلقّت أفريقيا الجنوبية ـ الصحراوية شتى ابتكارات واختراعات العصر النيوليتي ، من خلال الصحراء والنّيل الأعلى : رعي مواشي مُورس في الصحراء في الألف السادس ، زراعة بعض الحبوب والدرنيّات في الألف الرابع ؛ تعدين الحديد في الألف الأول . حتى أن مجتمعات أفريقيا السوداء ، في بداية عصرنا ، انتقلت عموماً إلى الحياة المستقرّة وظهرت أولى المدن/ الدولة . لكنّ فوارق كبرى قامت بين بعض الشعوب التي تتعاطى الزراعة بالمحراث (النوبة والحبشة) ومعظم المجتمعات الزنجيّة ـ الافريقية المتمسكة بنوع من البستنة بالمجرفة التي نشرها توسُّع البانتو نحو الشرق والجنوب وبعض جماعات الرّعاة الرُّحل ، المطرودين نحو القَرْن الافريقي الصحراوي ، وجماعات الصّيادين القاطفين ـ من بيجمّيين وبوشيمانيّين ـ الذين استقرّ بعضهم شيئاً فشيئاً في الغابة الكثيفة ، وبعضهم الآخر في منطقة كالاهاري شبه الصحراويّة .

وأخيراً ، شهدت أوستراليا ، المقطوعة عن العالم القديم من جرّاء الصعود الجليدي للمياه البحرية الذي اكتمل سنة 4000 ، تحجّر سكّانها الذين يجهلون الملاحة ، في حالة مجتمعيّة باليوليتيّة . بينما المضائق الأوقيانيّة ستتلقّى ، بفضل الهجرات المتتالية التي طاولتها والعلاقات البحريّة القائمة بينها وبين العالم ، عدداً صغيراً من الابتكارات النيوليتيّة التي ستتناقصُ من أرخبيل إلى آخر بقدر الابتعاد عن آسيا : بعض الزراعات ، قليل من الحيوانات ، لا تعدين ولا كتابة ولا حياة حضريّة .

2 . تباين العناصر الأساسيّة

إن هذا التباين في الثقافات ، وبالتالي في الحضارات سوف يزداد من جرّاء عدد الابتكارات التقنولوجية ، الاقتصادية ، الاجتماعيّة والثقافية التي لن تتوقّف عن الظهور في المجتمعات التي يقودها تاريخ تراكمي . ويمكن لهذه الابتكارات أنْ تشدّد الفوارق بين حضاراتٍ تاريخية بقدر ما يمتنع كلٌ منها عن الأخذ بكل ما يخترعه الآخرون ؛ ولكنّها ، في المقابل ، تعمّق الهوّة بين الحضارات الهامشيّة التي ظلّت في مرحلة سابقة من مراحل التطوّر ، والتي يمكنها هي أيضاً ، أن تأخذ جزئياً عن سواها ، وتتميّز قليلاً عن مثيلاتها .

إلى جانب الفوارق الممكن لحظُها في مرحلة التطور ـ الپاليوليتي ، النيوليتي ، ثم في المجتمعات التاريخية المزوّدة بالكتابة والمميّزة بشتى طرق الانتاج والتنظيم الاجتماعي ـ ، لا بد من ذِكر الفوارق الناجمة عن المقوّمات الماديّة التي وجدتها كل حضارة ، أو اختارتها ، في البيئة الحيوية التي شهدت ولادتها .

يتميّز العصر النيوليتي بالزراعة أولاً ، ولكن زراعة أية نباتات ؟ إن الحبوب الأساسيّة ، مثلاً ، تعكس نجاحات كل مجتمع على حدة . فبينما كان الشرق الأوسط يدجّن القمح والشعير ، كانت آسيا الجنوبيّة تدجّن الأرز ، وكانت الصين تزرع الذرة البيضاء والحنطة السوداء **(Sarrasin)** وأوروبا الشمالية تزرع الجودر والشوفان ، وأفريقيا السورغو وأميركا الذرة[1] . والأمر ذاته بالنسبة إلى تدجين الحيوانات ؛ ففي كل قطاع من المعمورة انصبّ الجهد على عدد صغير من حيوانات ممكن بلوغها وتكيُّفها ، صارت مميّزة لاحقاً : العنزة والخروف في الهلال الخصيب ؛ الحمار ، في مصر ؛ البقر والوزّ في أوروبا الجنوبية ؛ البقر المحدودب ، وربما الدجاج والخنزير في الهند ؛ جاموس الماء في جنوب شرق آسيا ؛ الياك **Yak** في التيبت ؛ الجمل التتري في صحارى آسيا الوسطى ، والجمل الوحيد السّنام في صحارى الجزيرة العربية ؛

---

(1) Cf. J. Bertin et autres, Atlas des Cultures vivrières. Paris, Mouton, 1971.

الحصان في السهوب الأوروبية ـ الآسيوية ؛ والرنّة في التوندرا ؛ ديك الحبش في أميركا الشماليّة ؛ والخنزير الهندي واللاما والألباجا في أميركا الجنوبيّة . بعض هذه الأنواع جرى تبنيها في عدّة قطاعات من المعمورة ، مثل العنزة والخروف والخنزير والبقر والدجاج والحصان . الخ . لكنّ أنواعاً أخرى ظلّت محصورة في المناطق الجغرافية الضيّقة جداً ، مثل الياك ، الجمل ، الجاموس ، الأيل ، اللاما ، الخ . هناك حضارات قامت مبكّراً بتنويع مواشيها ، وهناك حضارات أخرى ظلّت مقيّدة بعددٍ صغير جداً من الأنواع ، كما هو الحال في أميركا الجنوبيّة . وبعض الحضارات جهلت كل نوع من أنواع تربية الماشية ، كما هو الحال في أميركا الوسطى ، ولم يعجبها سوى التدجين المحدود جداً لبعض الحيوانات ، كما كان الحال في الصين التي وصفت بأنها « حضارة نباتيّة » ، أو لم تستقبل التدجين إلاّ في وقت متأخّر ، بكيفيّة محدودة على الصعيدين الجغرافي والاجتماعي/ الثقافي ، كما هو الحال في أفريقيا السوداء .

من الممكن إبداء الملاحظات ذاتها بشأن كل الزراعات الحياتيّة الأخرى (الدرنيّات ، الخضار ، الفواكه ، التوابل) التي أسهمت في التغذية الأساسيّة لكل حضارة ؛ وبشأن المنسوجات الرئيسة ، والنباتات الصبغيّة ، والمعادن ، ومواد البناء ، الخ . وكل ما يشكل أساس الحياة اليوميّة ويتبدّل ببطءٍ في مجتمعٍ ما . كل ما يميّز مجتمعاً ويمنحه أسلوباً مألوفاً لدى أفراده ، وغريباً في نظر الآخرين ؛ كل ما يتعلق بخيارٍ ثقافي في خزّان الطبيعة ، ومن ثم يتوطّد من خلال التراث ، إذْ لا يكفي تبني نبتةٍ ما ، حيوانٍ ما ، بل ينبغي أن يُستفاد منه على أفضل وجه . فكم من الحضارات تبنّت تربية الأبقار ؛ لكن بعضها لم يفكّر بأكل لحم البقر ، وبعضها الآخر لم يتعلّم حلب البقرة . وبالتحديد يمكن الحكم على القوّة التطوريّة لأية حضارة استناداً إلى قدرتها على تبني مزايا جديدة .

3 . تلاقي الحضارات من خلال القروض الثقافيّة

لكنْ لا بدّ من القول إنّ العصر الحديث ، مع انقباض العالم وتوثّق

المبادلات ، سرّع في كل مكان انتشار كل العادات التي تنزع إلى الشمول والعالميّة في الحدود التي تفرضها البيئة الطبيعية (حواجز بيئيّة) والتقاليد أيضاً (حواجز أخلاقيّة). غير أنّ هذه الحدود آل بها الأمر إلى أن تغدو أكثر مرونةً مما كان يُظنّ . فقد صارت الأنواعُ شفّافةً واندمجت في كثيرٍ من المُحيطات والبيئات التي يُجهل مصدرُها الخارجي . فمن يرى في أوروبا أن أشجار التفّاح والإجاص والخوخ والمشمش والكرز والدرّاق قدمت من الشرق الأوسط ، أو من أماكن أبعد ؟

« لكي نكوّن فكرة عن ايطاليا الجاهلة بوجه عام الزيتون والكرمة والسّرو والدُّلب والدّفلى والحامض والبرتقال ، لا داعي للمضي بعيداً في الزمان الغابر » ، حسبما لاحظ لوسيان لفيفر (الأرض والتطور البشري ، 1922 ، طبعة جديدة 1970 ، ص 177) .

عملياً يكفي الرجوع قرابة ثلاثة آلاف سنة إلى أزمنة الحضارة الإيجيّة ـ الكريتية التي نقلت إلى اليونان هذه المُقترضات من الشّرق . ومن يصدّق أيضاً أن كل أنواع الصبّار جاءت من أميركا ، منذ أقل من خمسة قرون ، وأنّ أنواع الأوكاليبتوس جاءت من أوستراليا ، منذ أقل من قرنين ؟ في المجتمعات الصناعيّة التي توحّدها « الضغوط » ، حيث يجري الانتقال بشكل متواصل من مهدّىء إلى مهيّج ، من يتذكّر الأزمنة التي لم تعرف التبغ والكاكو القادمين من أميركا ، ولا البنّ من الجزيرة العربية أو الشاي من الصين ؟ والتي لم تعرف ؛ بالطبع ، الكوكا ، والكوكا كولا والأفيون والقنّاب ومهماز الجودر أو الپيتول ؟ صحيح أنّ الغربَ في المقابل أعطى للآخرين نبيذه وجعّته والكحول ، قاضياً في كل مكان على نبيذ التمر وجعَة الذّرة البيضاء وكحول أخرى محليّة وبلديّة كانت أقل شهرةً من سواها . فبعد ألوف السنين من التمايز والتباين صارت سبل توحيد المعمورة صعبة التوقّع . فاحتساء الشّاي اليومي المتعدّد ، المندمج عمقياً في حياة الشعوب الصحراويّة ، لم تتعوّد عليه إلاّ في القرن العشرين ، عن طريق المغرب الذي كان قد تلقّاه من مصدّرين أوروبيين . . .



شكل 5 ـ المدارات الحضارية الراهنة
(المدارات الكبرى)

4 . التوحيد الداخلي للحضارات

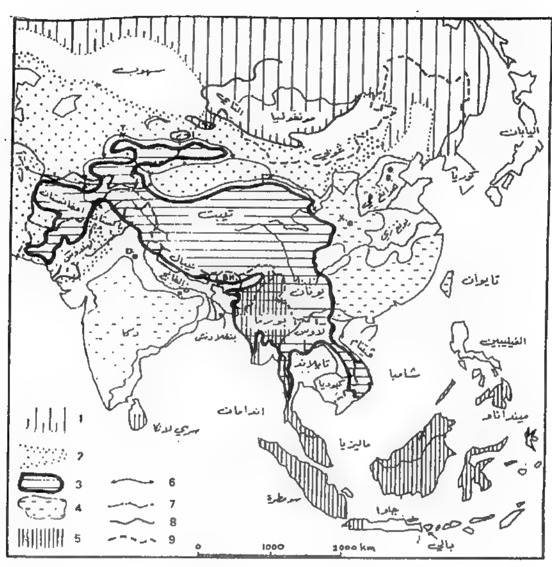
تبدو كل حضارة تتحرّك دائماً بنزعتين متعارضتين : إحداهما نحو التفكك وثانيتهما نحو الوحدة . مردّ النزعة الأولى مسارُ الابتكارات التقنولوجية والاجتماعية ـ الثقافيّة ، الذي ينزع ، حين يميّز بعض الجماعات البشريّة ، بعض الأقاليم ، إلى جعلها من أقطاب التغيير ، وبالتالي ينزع إلى وضعها في مجابهة الباقي ، وبذلك ينزع إلى إنماء الفوارق والحركات النابذة . أما النزعة الثانية فتعتمد على قدرة كل حضارة في المحافظة على توازنها، سواء باستيعاب بعض المتغيّرات بلا صدامات ، أم بالجمود داخل إطار مستقرّ ، منغلق عن كل إسهام خارجي ، وحائل دون أي تجدّد داخليّ . لقد أذنت هاتان النزعتان بتفسير تكوّن الحضارات وديمومتها ، انحطاطها وانحلالها . وهذه ظواهر ليست بلا نظائر ، مع الآليّات البيولوجية التي تحرّك الكائنات الحيّة والتي تتعلق بآليّات التفاعل التي توجّه كل منظومة قائمة على عناصر مختلفة الأنساق ، الآليّات الناظمة ، الميّالة إلى توفير الاستقرار والانسجام للمنظومات ، عند استدماج عناصر جديدة وتغيير عناصر قديمة .

تتميّز الحضاراتُ بمجموعة سماتٍ مختلفةِ الأنساق ، تميّزها من جاراتها ، ويمنح تركيبُها الخاص لكلٍ منها علامتها الفارقة . تعود هذه السّماتُ المختلفة إلى الجغرافيا الطبيعية (الإطار البيئي) والإناسة (التركيب العرقي للسكان) والتقنولوجيا والاقتصاد (آلات وطرق الانتاج) والبناء الاجتماعي (التكوّنات الاجتماعيّة) والتنظيم المدني (شبكة المواصلات ، الاستقطاب الحضَري) والتركيب الإثني (أعراق وأمم) ، والمركزة السياسيّة (دول وامبراطوريات) ، والثقافة بالمعنى الضيّق (لغات ، آداب ، فنون ، دين ، فلسفة ، ايديولوجيا) .

في كل نسق ظواهر يمكنُ أنْ نصادف ، داخل حضارة واحدة ، كثافةً معيّنة ناتجة عن تراكب أو تعاقب مزايا وسمات مختلفة الأصول، ولكنْ يجري بوجهٍ عام التفريق في داخلها بين سمة نموذجيّة (وأحياناً عدّة سمات) : شكل سائد ـ مناخ نموذجي ، مثال إناسي قديم ، نمط إنتاج وتشكيل اجتماعي

سائدان ، مخطط حَضَري رائج ومتروبولي ، شعب مركزي ، نزعة إلى الوحدة ، لغة ثقافية كبرى ، أسطورة مؤسسة ، أسلوب مأثور (كلاسيكي) ، ديانة « شموليّة » ، منظومة فكرية مميِّزة . . . لكن كل نسق مظهري لا يسمح أيضاً بتشخيص كل الحضارات ؛ فقد كان لكل حضارة ، علاماتها المميِّزة (Marqueurs) الخاصة بها : هنا الدين ، هناك اللغة أو الكتابة ، هناك الشعب الاتحادي أو المدينة ـ الأم . لذا ، فإن أية مورفولوجيا حضارات لا يمكنها ، على الرغم من قيامها على مقارنة السمات المميزة لكلٍ منها في كل نسق مظهري ، أن تحلّلها وفقاً لنموذج قياسي واحد ، ويتعيّن عليها أن تسمح بتقويم ما هو نموذجي جداً في كلٍ منها .

إن أيّة نماطة (Typologie) أو نمذجة للحضارات ، حين تنطلق من هذه الاعتبارات ، إنّما تؤدّي إلى الاستنتاج بأن الحضارات تُعرف بعلاماتٍ مميِّزة ، مختلفة نسقياً ، وفقاً لتطوّرها الماديّ ودرجة الكثافة التي بلغتها . أما الحضاراتُ الصغيرة التي ظلت شديدة التبعيّة للمحيط الطبيعي ، فهي بكل وضوح أكثر انطباعاً بإطارها البيئي ، وتتوافق أحياناً مع قوم ، مثل قوم القنّاصين على الساحل القطبي الأميركي ، المحصور بعرق الاينويت (الاسكيمو) . وهناك بعض الحضارات ، الأكثر امتداداً مثل حضارة رعاة الأيائل على الساحل القطبي الأوروبي ـ الآسيوي ، التي تتطابق مع عدّة أقوام ـ السّام (اللابون) ، الساموييد (النينيّون) ، الياقوت ، الخ . ـ وعدة لغات تنتسب إلى عائلات مختلفة . كذلك هو الحال بالنسبة إلى حضارات القنّاصين في الغابات الشمالية الكبرى ، الكنديّة أو السيبيريّة ، أو حضارات الرعاة الرّحل في السهوب الأوروبيّة ـ الآسيويّة ، التي لا تتميّز بكونها متعدّدة الأعراق وحسب ، بل بكونها قد أُخضعت أيضاً لموروثات وتقاليد دينية شتّى ـ شامانيّة ، بوذيّة ، مسيحية ، إسلاميّة ـ ، وبكون الأخيرة منها قد أسهمت في ابتكارات سياسيّة ، دوليّة وامبراطوريّة . وحين يُنظر في الحضارات الكبرى لدى المزارعين المستقرّين ، يُلاحظ أنَّ ضغوط الإطار البيوجغرافي قد تلاشت على ما يبدو ، مثل الهويّات الإثنيّة ، لصالح أسس توحيديّة هي المنظومات الدينية والفكرويّة الكبرى : الأخلاق الكونفوشيّة ، التصوّف الطاوي والطقوس البوذيّة بالنسبة إلى الصين



شكل 6 ـ المدارات الحضارية الهنديّة والصينيّة

1 . الغابة الشماليّة ؛ 2 . الخط القاحل الكبير ؛ 3 . الكتلة الجبلية الأسيوية الوسطى ؛ 4 . السفوح والجبال الوسطى في الهند والصين ؛ 5 . الغابة الاستوائية الكثيفة ؛ 6 . معالم طريق الحرير بين الصين والشرق الأوسط وممر خيبر بين طريق الحرير والهند ؛ 7 . سور الصين ؛ 8 . حدود الدولة الحاليّة ؛ 9 . حدود المدارات الحضارية الكبرى (حسب الحدود) .

B : بكين
D : دلهي
P : باتنا
T : طلاس
X : اكسيان

والبلدان المتأثرة بها ؛ النظام الاجتماعي/ الثقافي الهندوكي بالنسبة إلى الهند والبلدان المتهنّدة ؛ الفكر الاغريقي ـ اللاتيني والديانة اليهودية ـ المسيحية بالنسبة إلى الغرب الخ . حتى أن المجتمع الصناعي ذاته ، راح يبحث بشكل ملحوظ ، بعدما وحّد العالم إلى حدٍ كبير على صعيد الحضارة المادية ، عن أساس توحيدي متين يسمح له بالسيطرة على التوترات الحادة جداً التي تحملها هذه الحضارة في داخلها : التوترات السياسية ـ الفكرويّة (الشرق/ الغرب) والاجتماعية/ الاقتصادية (خصوصاً بين الشمال والجنوب) والبشرية/ البيئيّة .



المدارات الحضارية الحالية الكبرى

الفصل الأول

المدار الحضاري الهندي

I . شبه القارّة : الوحدة الطبيعيّة والتنوّع البشريّ

إنّ شبه القارّة هي الأكثر انغلاقاً بين التقاسيم الكبرى لأوروبا الآسيويّة . فعلى الرغم من اتساعها العظيم ، يشكّل ارتباطها بالقارّة حاجزاً رائعاً ، قطعاً كاملاً ، جبليّاً ، مُناخيّاً ، بشريّاً : شرقاً ، سلسلة جبال بورما المكسوّة بالغابة الكثيفة ، الشاشة الخضراء ، غير الممكن اختراقها تقريباً ، التي تقطع آسيا من الجنوب إلى الشّرق ؛ وفي الوسط جبال الهملايا على امتداد 3000 كلم ، المستندة إلى التيبت (في عمق 1000 كلم وارتفاع 4000 متر) ، والفاصلة بين الصين ، في الشمال ـ الغربي ، والهندو/ كوش (« سلسلة » الهند ، « القوقاز الآسيوية » القديمة) والپامير (« سطح العالم ») ، الشاشة المستديرة نحو آسيا الوسطى ؛ وغرباً السفوح الإيرانية ، الصحراوية بمجملها ، المنتصبة على امتداد 2000 كلم قبل سهول « الهلال الخصيب » . مع ذلك ، من هنا ، من خلال بعض الممرّات ـ أشهرها ممرّ نهر كابول وممر خيبر ـ وصلت كل الغزوات إلى الهند . فطريق الفاتحين على الجواد ، القادمين من السّهوب ، هذه الطريق المتفرّعة من درب الحرير ، كانت أيضاً طريق بعض الارساليين ، الفنّانين أو الجوّالين الذين قاموا بنقل الأديان والفنون والأشياء الثمينة بين الشرق الأوسط والهند والصين .

ولكنْ ، حتى تطور المواصلات الجويّة ، في نهاية القرن العشرين ، كان القسم الأساسيّ من العلاقات التجارية بين الهند والعالم يتمّ من خلال البحر ؛ من خلال المحيط الذي يحمل اسم الهند ، التي تتقدّم فيه بعمق وترتبط ،

بفضل الرياح والتيارات الموسميّة المتعاقبة ، ارتباطاً منتظماً منذ الأزمنة القديمة ، بالشرق الأوسط والصين . وأخيراً ، من هناك جاء الأوروبيّون أيضاً . فالريح الموسمية ، الريح الممطرة القادمة من الغرب ومن بحار الجنوب ، هي التي تنظّم حياة الهند الفصليّة ، وتوفّر عليها مؤونة التحول إلى صحراء ، كما يُفترضُ عادة أن تكون مكانتها في ظل المدار ، المماثلة لمكانة الجزيرة العربيّة والصحراء . ولكن الريح الموسميّة لا تنقذ الهند كل صيف من الجفاف إلاّ جزئياً وبطريقة محدودة نسبيّاً وفقاً للمناطق .

لئن كان ساحل مالابار ونصف سري لانكا مُناسبين للغابة الكثيفة ، فإنّ القسم الأكبر من شبه جزيرة دِكان Dékân (الجنوب) ، وسهول الغانج ، مُغطىً بالأدغال أو الغابة الموسميّة ، الأكثر تنوّراً ، حيث تتعايش الأنواع المُخلَّدة والتساقطيّة (Décidues) . أما الهوامش الشماليّة ـ الغربيّة ، حيث يصل الريح الموسمي بشكل غير منتظم والتي تشهد في نهاية المطاف المشاهدَ النموذجية للمناطق ما دون القاحلة ـ غابات جافّة ، غابات السافانا ، السهوب ـ والقاحلة تماماً : الصحراء الهندية الكبر Thar أو مورشتالي (بلاد الموت) ، المزروعة كثباناً وواحاتٍ حيث يسمح نهر الهندوس وروافده ، النازلة من جبال الهملايا ، للبنجاب والسند بارتداء حلل زراعية مماثلة لما ترتديه مصر .

وإذا كان هناك ، حقاً ، نموذج بشري هندي ، يمكن التعرّف إليه بسهولة ، فإنّ هذا النموذج ، المميّز بمزايا ثقافيّة ، يتكوّن من خليط وتركيب وحيدين في العالم ويرجعان بلا شك إلى عصر الأزمنة القديمة جداً ، عصر العناصر الآتية من أعراق سوداء وبيضاء وصفراء .

فلا يزال قائماً في سري لانكا أصل زنجيّ البشرة بدائي عتيق ، جرى تقريبه من الأوستراليّين ، ومثاله الفدّيون Vedda الذين احتفظوا بنمط حياة پاليوليتي ، وهذا العرقُ ترك آثاراً في عدّة قبائل حِرْجيّة في شبه الجزيرة . إلاّ أن معظم الهنود ينتمون إلى نموذجين : العرق الهندي الأسود ، المسمّى باسم الهندي الزنجي Mélanoindienne أو الهندي الجنوبي ، ذي الشعر الأجعد والسّمات القريبة من سمات الأوروبيّين (الأمر الذي حمل الإناسيّين الهنود

على وصف هـذا العرق بصفـة « البـاليـو ـ المتـوسـطي ») والعـرق الهنـدي الأبيض ، الذي هو امتداد للنماذج الشّرقيّة ـ الأوسطية ، كالنموذج الهنـدي ـ الأفغاني . وأخيراً ، شهدت تخـوم الهملايا وبورما منذ آلاف السنين ، تغلغل عناصر مونغوليّة شتّى ، منها الغـوركا في النيبـال الذين يمثّلون هـذا العنصر أفضل تمثيل .

لكنّ وجود هذه المخزونات العرقيّة الأربعة الأساسيّة لم يعد يتطابق إلا نادراً مع الاختلافات الإثنيّة . فكل إثنيّـة كبيرة تـظهرُ تراكباً من عـدّة نماذج متنوّعة ، ويمكن فقط لبعض الإثنيّات الصغيرة المعزولة والمتباعدة ـ الجزْجيّة أو الجبليّة ـ أن توفّر انسجامـاً انثروبـولوجيّـاً معيّناً . فيمـا يتعدّى هـذا التنوّع الـداخلي الكبير ، يبقى أنَّ مـا يميّـز إثنيّـات الهنـد هـو كثـرتُهـا ، المتمّمـة لكثرة اللغات .

تنتسب اللغاتُ في الهند إلى أربع عائلات متمايزة ، منها عائلة واحدة خاصة بشبه القارّة : عائلة اللغات الدراڤيديّة ، الموجودة بشكل أسـاسي في جنوب دِكان . أما لغات المونـدا فهي قريبة من المون ـ خِمر في العائلة المسمّاة الأوستـرو ـ آسيويـة ؛ واللغاتُ الهنـدو ـ آريّة هي الفـرع البعيد من الأرومـة الهنديّة ـ الأوروبيّة ، بعد الفرع الإيراني ؛ وتعكس اللغات التيبتيّة ـ البرمانيّة التوغّل في الهوامش الجبليّة للسكان القادمين من الشمال الشرقي . أي هناك في الإجمال أكثر من إثنيّة لكل منها لغتها ، ولكنّ أربع عشرة منها (أربع لغات دراڤيديّة وعشر لغات هنديّة آريّة) يتكلّمها 90٪ من السكّان ، دون أن تكون أيّ منها ذات سيطرة حقيقية ، في الماضي أو الحاضر ، على اللغات الأخرى .

II . الهندوكية ، ثقافـة توحيديـة

ظهر العصر النيوليتي في الألف السادس على الهوامش الإيرانية لشبه القارة ، في مرحلة دفء تلا المرحلة الجليديّة ، وبالتالي كانت تلك الهوامش أكثر رطوبة مما هي عليه اليوم . وفي الألف الثالث ظهرت الحضارة المدنيّة في حوض الهندوس وتمركزت في هارابا وموهنجودارو . ظهرت بعد سـومر التي

كانت على علاقاتٍ بها ، وتجاوزتها من حيث درجة تنظيم المدن على صعيد شبكات المياه والمجارير وبناء البيوت القرميديّة . لكنها زالت نحو العام 1700 ، لأسباب غير واضحة كفاية ، وغرقت في لجّة نسيانٍ كاملٍ ، حتى القرن العشرين ، حيث تمّ اكتشاف آثارها ولا يزال التردّد قائماً حول التأكد مما إذا كانت كتابتها ، العصيّة على الفهم ، تنتسب إلى لغة دراڤيديّة .

بعد تعاقب عدّة قرون ، وصل الآريّون ، من خيّالة ورعاة أبقار ، أشقاء الميتانيين (Mitaniens) ، الذين سادوا أعلى بلاد الرافدين من القرن السادس عشر إلى القرن الرابع عشر ، وأشقاء الإيرانيّين . وحملوا معهم ثقافةً مكوّنة وجاهزة مع طقوسها ونصوصها الشفهيّة ـ الڤيدا (المعرفة) ـ ونظام اجتماعي قائم على التوزيع الهندي أوروبي الثلاثي ما بين مالكي ثلاث وظائف . المعرفة (الكهنة ـ المربّون ـ المستشارون) ، السلطة (الأمراء والمحاربون) ، والمُلك (أصحاب المواشي = الرأسمال ، المزارعون المقبلون ، الحرفيّون ، التجّار)[1] . إن هذا النظام التراتبي القائم على المنصب ، الممنوح بالولادة والمؤيّد بالطقوس ، سوف يتكيّف ويتبدّل : تكوين طبقة مغلقة رابعة (غير آريّة ، أي غير شريفة) ، طبقة الخدم الآتين من المجتمعات المحليّة ، التي سيجري دمجها ؛ لكن دون الفئات الدنيا من عبيد وشغيلة يقومون بمهام مطبوعة بطابع الأعمال غير الشريفة ، ودون السكّان المحليين المهمشين ، الذين سيظلون مُستبعدين : « خارج الطبقات » ، محكومين بحكم الإفراد والابعاد ؛ فإن التفريع اللامتناهي للطبقات الأصلية المغلقة الأربع ولمن هم خارج الطبقات ، سوف يولّد عدداً كبيراً من الطبقات المهنية الفرعيّة المغلقة ، الخاصّة بكل منطقة وبكل قوم .

إن هذا النظام الذي ساد في الهند حتى أيامنا ، شمل شيئاً فشيئاً شبه القارّة بأسرها ، انطلاقاً من البنجاب وسهل الغانج اللذين يعبرهما دربُ الجنوب (داكشينا باتا) . وقد رافقه مسارٌ تثاقفيّ ثلاثيّ تجسّد في البَرْهَمة

(1) هناك في المقابل توزيع ثلاثي متعكس في فرنسا ، في الطرف الآخر من المجال الهندي ـ الأوروبي ، من خلال المراتب الثلاثة للدول العامة سنة 1789 : الاكليروس ، النبلاء ، العامّة .

Brahmanisation ـ الاعتراف بسيادة البراهمة (الكهنة) على سائر الطبقات الأخرى ـ والأرينة Aryanisation ـ توسع اللهجات الهنديّة ـ الآريّة وشمولها القسم الأكبر من شبه الجزيرة وسري لانكا . والنتيجة ستكون رسوخ ثقافة هندوكيّة توليفيّة في طول البلاد وعرضها ، تدور حول نواة الطقوس الڤيدّية والأشكال الدينية المحلية أو الحساسيّات الجديدة ، المضمونة من جانب البراهمة .

ستردُّ الهندوكيّةُ على عدّة اعتراضات ايديولوجيّة وانشقاقات دينيّة ، بقدرة دمجيّة توليفيّة هائلة : الجاينيّة (Jänisme) القائمة على اللاعنف الشامل سيجري تهميشها ؛ والبوذيّة ، اللاعنفيّة ، المساواتية والمُلحدة سيجري استيعابها إلاّ في سري لانكا ؛ واللينجاياتية (Lingayatisme) المناهضة للبرهمانية سيجري استدماجها ؛ والسيخيّة (Sikhisme) التوحيديّة علناً ، سوف تستوعب إلى حدٍ ما . حتى الديانات الآتية من الخارج ـ اليهوديّة ، المسيحيّة ، الزرداشتيّة ، الإسلام ـ التي لم تدخل في اللعبة التوليفيّة ، سوف تنقاد إلى وضع تفاعلي وتمويهيّ يصل بها إلى حدّ تبني نظام الطبقات المغلقة .

III . غزوات ، امبراطوريات ونفوذ خارجي

إن وحدة الهند الدينية والثقافية والوعي الشعبي بالانتماء إلى جماعة بشرية واحدة ، مشخّصة في « الهند ـ الأم » رافقهما تأرجح على عدّة أجيال ما بين حقباتٍ متعاقبة من التجزئة السياسية والتوحيد السياسي . إنّه تأرجح مُضاعَف ومنفعل بوتيرة الغزوات التي أدّت ، من خلال الممرّات الإيرانيّة ، إلى ذلك التدفّق لفرسان يبحثون عن فتح الهند والإقامة فيها ، وآل بهم المطاف إلى أن صاروا هنوداً ، وإلى توحيدهم للهند أحياناً : الآريّون (في الألف الثاني) ، الفرس (الألف الخامس) ، الإغريق (الألف الرابع) ، السكيتيون والپارتيون (الألف الثاني) ، الكوشانيون (القرن الأول الميلادي) ، الهونزا (القرن الخامس م .) ، العرب (القرن السابع م .) ، الأتراك (القرن العاشر) ، الأتراك ـ الأفغان (الثالث عشر) ، المغول (الثالث عشر) ، الأترا[illegible] المغول (الرابع عشر) ، الأفغان (الثامن عشر) . وفي ما

يتعدّى التقسيم الطبيعي والتنوّع البشري المؤاتي في شبه القارّة لكثرة السيادات السياسيّة والمراكز الاقتصاديّة والثقافيّة ، كانت النزعة إلى الوحدة تتجلّى بثبات ، وانطلاقاً من الشمال في معظم الأحيان : هكذا كانت حالة ممالك موريا مع الآشوكا (في القرن الثالث ق.م.) ثم مع الغوبتا (القرن الميلادي الخامس) ، وكلتاهما متمركزتان في وادي الغانج (پاتنا) ، وبعد ذلك مع مملكة هرشا (القرن السابع) ، المنطلقة من كانوج في الوادي المتوسط ؛ وأخيراً مع سلطنة دلهي (القرن الثالث عشر ـ الخامس عشر) . ومن الجنوب انطلقت المحاولات الامبرياليّة التاموليّة ، النازعة مع الشولا (الحادي عشر) إلى توحيد دِكان وبلوغ الغانج ؛ ثم ، انطلاقاً من ڤيجاياناغار (الرابع عشر ـ السادس عشر) نزعة لإطلاق مقاومةٍ جنوبٍ دراڤيدي هندوكي موحّد في مواجهة الفتح الاسلامي ، المرتكز على دلهي أو على سلطنات دِكان ؛ وأخيراً ، المقاومة الهندوكية الأخيرة في مواجهة الهيمنة الإسلامية القائمة على الاتحاد الماراتي (السابع عشر ـ الثامن عشر) انطلاقاً من شمال غرب دِكان .

عمليّاً ، العصر الحديث والمعاصر هو الذي شهد تحقّق التجارب التوحيديّة الأكثر خصباً : تجارب السلاطين المسلمين في دلهي ، ثم الهيمنة البريطانية ، Britsh Raj . فالسلاطين المسلمون ، الهنود في العمق ، كانوا ممثلين حضارة مختلطة ساطعة ، لا يزال الفن الإسلامي ـ الهندي من أروع شواهدها . أما الهيمنة البريطانية فقد أعطت للهند الموحّدة قرنين (1757 ـ 1947) من الاندماج العميق والاتصالات الاقتصادية والثقافية الخارجيّة التي جعلتها تدخل ، جزئياً على الرغم منها ، وجزئياً على الرغم من البريطانيّين ، في مدار الحضارة الصناعيّة .

فالمدارُ الحضاري الهندي ، الشديد الالتصاق بشبه القارّة ، لئن كان قد شهد الوحدة السياسيّة بشكل نادر ، فقد حافظ على تناغم ثقافي واجتماعي مرموق ، لم يتمكّن تقسيم 1947 من النّيل منه جوهريّاً . ذلك أنّ الپاكستان وبنغلارش ، وهما دولتان ذاتا أغلبية إسلاميّة ساحقة (أكثر من 90٪ و 80٪) ، إنّما تضمُّ كلٌّ منهما أقل مما تضمّ الجمهوريّة الهندية من المسلمين ، وما زالتا جزءاً لا يتجزأ من العالم الهندي ، وكذلك الحال بالنسبة إلى سري لانكا

والنيبال ، حيث تُعَدُّ البوذية ، الديانة الهنديّة ، ذات أكثريّة ضئيلة ، وذات أقليّة واضحة ، على التوالي في كلا البلدين . فيما يميّز مختلف أجزاء شبه القارّة هو الانتماء إلى عالم ثقافي ، اجتماعي وتاريخي خاص ، أكثر مما تميّزها الهندوكيّة الدينية .

لكنَّ الهُنـودة Indianité لم تنقطع عن التغلغل السلمي في المدارات الثقافية المجاورة ، انطلاقاً من شبه القارّة ، الشديدة التفتّت بوجه عام ، والعاجزة عن ممارسة أية هيمنة خارجيّة . فبعد مرور الاسكندر الكبير ، كانت افغانستان الحاليّة مركزاً لسلالات هنديّة ـ يونانيّة توطّد في عهودها الفنُّ اليوناني ـ البوذي الذي رافق البوذيّة في امتدادها على طول طريق الحرير . فعلى امتداد هذه الأخيرة ، عبر آسيا الوسطى ، غير المُستَتركة بعد ، لم يكن يعيش سوى شعوب ذات لغات هنديّة ـ أوروبيّة ـ الشعوب السوغديّة Sogdiens في تركستان السوڤياتيّة الحاليّة ، والكوتانية Khotanais والتوكارية في تركستان الصينية الراهنة ـ التي رحّبت بالأشكال الدينية والاجتماعيّة / الثقافيّة القادمة من الهند وفارس على حدٍ سواء ، وصنعت ثقافة « هنديّة ـ ساسانيّة » ، وجعلت تلك المناطق تُعرَف باسم هند الحرير (Sérinde) أو (الهند الصينية) حتى بعدما صار قسمُها الشّرقيُّ ولاية اكزيانغ الصينية (« الجبهة الجديدة ») (في القرن الأول ق.م.) . أما البوذيّة فقد واصلت مع الرهبان الهنود مسيرتها على طريق الحرير ، إلى حدّ أنّها انتشرت ، منذ القرن الثالث م. ، في الصين . وفي القرون التالية ، ستشمل العقيدة الجديدة (الماهايانيّة) كل المدار الحضاري الصيني ـ كوريا ، اليابان والڤيتنام ـ وانطلاقاً من القرن الثامن عشر م. اجتازت البوذيّة جبال الهملايا وبلغت التيبت حيث استوطنت في شكلها التانتري ، ومن هناك ستبلغ مونغوليا . وتبنّت التيبت أبجديّة هندية ، سوف تقلّدها مونغوليا .

بموازاة ذلك تعرّض جنوبُ شرقيّ آسيا للنفوذ الثقافي الهندي الذي ولد فيها الممالك الأولى ، حيث اندمجت الطقوس الهندوكية الملكيّة والعقيدة البوذيّة . لقد أخصبت الهند كل تلك المنطقة التي تشمل أندونيسيا (« جزر الهند ») وشبه الجزيرة « الهندية ـ الماليزيّة » و « الهنديّة ـ الصينيّة » المسمّاة

لأمد طويل باسم « الهند العابرة للغانج » ، لأنّها تشكّل امتداداً للهند . مع الديانات الهندية ، جاءت أيضاً الأشكال الإجتماعية/ السياسيّة ، النماذج الأدبية والفنيّة والأبجديّات . حتى اقليم يونان Yunan الذي كان يدعى آنذاك باسم نان ـ زهاو ، والذي يعيش فيه التاي ، كان بوذياً حتى القرن الثاني عشر وكان يحكمه « مهراجا » . لكن مهما كان جنوب شرقي آسيا أو آسيا الوسطى قد وقعا تحت التأثير الهندي ، فإن أساسهما الهندي لم يكن سوى عنصر في تكوين مجاميع حضارية أخرى ، خارج الهند .

وبالتالي فإن شبه القارّة ، التي تمثّل خمس البشريّة ـ وهذه النسبة قلّما أثّرت في مجرى التاريخ ـ تقترب من المليار نسمة ؛ وهي مثل الصين ، ستتجاوز هذا الرقم تقريباً سنة 2000 . إن جمهورية الهند تضمّ ثلاثة أرباع هؤلاء السكّان ؛ وعلى الرغم من الاختلافات الداخلية الكبرى المطبوعة بطابع التعايش بين خمسين إلى مئة مليون نسمة وصلوا إلى مستوى المعيشة الأوروبيّة ، مع أكثر من ستمائة مليون نسمة لا يزالون عُرْضَةً للتخلّف ، فإنّ الهند تفاخر ، وبحق ، بكونها أعظم ديمقراطية في العالم . وهذا يمثّل في العالم الثالث نجاحاً خارقاً لتلقيح المؤسسات الليبراليّة ؛ فقد صارت ، بفضل قواها الذاتيّة ، القوّة النووية السادسة ، والقوة السابعة على صعيد الملاحة الجويّة ؛ فهي مكتفية ذاتياً من الحبوب ، وتصدّر منتوجاتها التقنولوجيّة الأكثر تقدّماً . وذلك مع بقائها متمسكة بثقافة تطبع كل أسلوب حياتها ، وتعطيها هويّة لا تقبل الانفكاك .

تبقى الحضارة الهندية نموذجيّة من حيث قدمها ، تواصلها وفرادتها . فهي مستوطنة منذ خمسة آلاف سنة في إطار طبيعي واسع جداً ، وقد عانت ، انطلاقاً من خلفيّة إنسانيّة بالغة التنوّع ، ثلاث طفرات عميقة . الأولى ، لا تزال غامضة ، حطّمت إطارها « الهارابي » الأول وتركت الهند ترتبط ثقافياً بالعالم الهندي ـ الأوروبي ؛ والثانية ربطتها بالشرق الأوسط الإسلامي ، والثالثة ربطتها بأوروبا الصناعيّة والديمقراطيّة . لكنها لم تنقطع عن تطوير شخصيّتها الذاتية ، قيمها ، فكرها ، أشكالها الفنيّة الأصيلة ، وعن التمسّك بشعارها « الوحدة في التنوّع » .

الفصل الثاني

المـدار الحضاري الصيني

I . بـلاد الوسط[1] وقاطنوهـا

من حيث ضخامة شكلها وشدّة انصهارها المظهري مع بقيّة آسيا ، لا تقلُّ الصينُ عن الهند في تكوينها شبه قارّة أخرى ، فهي تضاهيها في تشكيل قطاع آخر من المعمورة ، منفصل بشكل واضح عن جيرانه . إنها تستندُ غرباً إلى كتلة التيبت الجبليّة ، التي تنسابُ منها أنهرُها الكبرى ، وهي تتطابق مع الشريحة المعتدلة من واجهة آسيا الپاسيفيكيّة . في الشمـال الغربي تفصـل سفـوح (Lœss du Shanxi) « جبـال الغـرب » مـا بين السهـول الصينيّـة لصحـراء غوبي (Gobi) ، الطرف المتجمّـد في الشتاء والمُحـرق في الصيف ، وبين الخط القُطري الأفريقي ـ الآسيـوي الجافّ الكبيـر . وفي الشمال ـ الشـرقي ينفتـح سهل منشـوريا المـوشّى بالغـابة السهبيّـة الهائلة ، المكسـوّة بأشجـار صنوبريّة ، التي تبدأ من جبال كوريا وتغطي سيبيريا . هذه الصين الشماليّة ، مهد الشعب الصيني ، هي منطقة معتدلة ميّالة إلى الجفاف .

لكنْ ، مع الصين الوسطى يبدأ المُناخ شبه المداريّ ، عبر سلسلة من التبدلات الضعيفة ؛ المناخ المُميَّز هنا بفصول صيفيَّة رطبة ـ طقس صيني أو « صيني جنوبي » مُميِّز للواجهات الشرقيّة للقارّات ـ الذي ينتقل بدوره (يعبرُ مدار السرطان كل جنوب الصين) إلى المناخ المداريّ المحض . في الجنوب الغربي ، السهول المتموّجة الممتدّة من التيبت ، تغلق مدخل شبه جزيرة الهند

(1) لا تزال تسمية الصين ، بالصينية ، الأكثر تداولاً والرسمية الوحيدة ، هي بلاد الوسط (Zhong guo) .

الصينية ، هذا العالم الصعب اختراقه ، المكوّن من أدغالٍ وغابات مطيرة ، الذي تفصح عنه منطقة يونان أو « الجنوبِ الغائم » .

وكما هو حال الهند ، فإن الوحدة المُناخيَّة تولّدها الرياح الموسميّة ، رياح الصيف التي تحمل من بحار الجنوب الرطوبة اللازمة لزراعات سهول الصين الشمالية والشرقيّة ، وأحواض الوسط والغرب ، وتلال الجنوب . إن هذا التأثير المشترك السائد هو الذي يجعل المناطق المناخية غير مميّزة تماماً ، ويجعل الأنواع المداريّة ، النباتيّة كالأرزّ ، والحيوانية كنِمْر منشوريا ، قادرة على التكيّف شمالاً . وإنّ مشاهد الطبيعة تتبدّل من جرّاء التضاريس أكثر مما تتغيّر من جرّاء تقسيم المناطق إلى جنوبيّة وشماليّة .

تُكْتَشَفُ هذه الوحدة للإطار الحيوي من خلال العنصر البشريّ . فمختلف النماذج المونغوليّة موجودة في كل أنحاء البلاد بنسبٍ متفاوتة ولكن دون وجود نماذج أخرى . فلا يوجد أي انقطاع جغرافيّ يمكن إدراكه على صعيد الإناسة (الأنثروبولوجيا) الطبيعية . وبالعكس ، على الصعيد الإثنيّ ، ليست الوحدة قويّة إلى هذا الحد . فإذا كان السكّان ينتمون بنسبة تزيد عن 93٪ إلى شعب هان (Han) ، ذي اللغة الصينية ، فإنّ البقيّة التي تمثّل نحو 80 مليون نسمة ، موزّعة رسمياً على 55 عِرْقاً احتفظت كلها تقريباً بلغتها الخاصة بها ، إلى جانب علاماتها المميّزة الأخرى . وهذه اللغاتُ تنتمي بمعظمها إلى مختلف فروع العائلة الصينيّة ـ التيبيتيّة التي تقرُّبها من الصينيّة : مياو وياو ، زوانغ ـ دونغ ، وتاي (Thaï)في التلال الجنوبيّة التي سينتشر كثير منها في اتجاه الهند الصينيّة ، والمجموعة التيبيتيّة ـ البرمانيّة في الجنوب الغربي ، التي ستقطن التيبت وهوامش الهند .

ستكون كل هذه الأعراق في أقاليم الصين الجنوبية ، معرَّضة جميعها لتوسع شعب هان جغرافياً ، هذا الشعب المكوَّن في سفوح الشمال وسهوله ، والذي لن يتوقّف ، على مدى ثلاثة آلاف سنة من التاريخ ، عن التقدّم إلى أحواض الجنوب وتلاله ، محوّلاً بقية الشعوب إلى أقليّات قوميّة واقعة تحت التأثير الصيني ، أو معرَّضة للهجرة . غير أنّ هذه الأعراق أناطت الصينيّين بعدد من السمات الحضاريّة ، مثل التقنيّات القائمة على زراعة الأرز في مستنقعات

ومسطحات ، وتربية الجاموس ، والبامبو الخ . وفي الشمال ، سيحتك الصينيّون بالأعراق ذات اللغات الأورالو ـ آلتيكيّة ـ التركية ، المونغولية ، التونغوزيّة(Toungouzes)ـ ، وبالرعاة الرُّحّل في السهوب والقنّاصين والصيادين في الغابات ، الذين سوف يعلّمونهم عدة تقنيّات آتية من وسط آسيا أو من الغرب : الحصان ، الذرة البيضاء ، صهر المعادن ، العربات الحربيّة ، الخ . التي غزت الصين بموجات متتالية من فاتحين أسّسوا سلالاتٍ صارت صينيّة ، الواحدة تلو الأخرى ، على امتداد الأجيال المتعاقبة .

II . الامبراطورية الصينية

عند نهاية ممر الغزوات الرئيسي ، طريق الحرير المُقبل ، ما بين الطرف الشمالي لسفح التيبت وصحراء غوبي ، ظهرت أشكال حضارية صينيّة أوليّة : ثقافة يانغيشاو ، في وادي نهر واي Wei (في الألف الخامس والرابع) ، قنّاصون وصيّادون يمارسون زراعة متنقّلة سوف تمتدّ على طول النّهر الأصفر (هوانغ هي) وترتبط بثقافة لونغشان (الألف الثالث والثاني) ، قرى حضريّة كبرى ستمتدّ من أسفل النّهر الأصفر إلى مجمل سهول الصين[1] . وفي المنطقة ذاتها هذه قامت على جانبي فتحات النهر السلالات الأولى ، إكزيا (الخرافيّة) نحو سنة 2000 ق.م ، وشانغ ، في منتصف الألف الثاني ، المرتبطة مع صهر البرونز وظهور شبكة مدن يقيم فيها النبلاء المحاربون . مع سلالات زو (الألف الأول) ، انتقلت الصين الشماليّة من الوحدة إلى التفكك الإقطاعيّ (اقطاعات ودول عسكريّة) ؛ لكن اكتشاف صهر الحديد سمح بتقدّم اقتصادي كبير جداً : استصلاح الأراضي ، الزراعة ، الرّي . إنّ الإمبراطور الأول ، شي هوانغدي ، مؤسس سلالة كين الثانوية (221

(1) أظهرت حفريّات حديثة في جنوب خليج هانغرو ، ثقافة همودو (الألف الخامس) في مناخ مداريّ رطب من الطراز النيوليتي الذي عرف زراعة الأرزّ ، تربية الجاموس ، النسيج والحياكة ، الخ. ، الأمر الذي قاد التاريخ الصيني إلى القول : « إن أكبر نهرين في الصين هما أيضاً مهدا الحضارة الصينية » .

206) ، وحّد البلاد حتى الجنوب ، وحماها بالسور الكبير وفرض عليها أنظمة موحّدة للموازين والمقاييس والعملة والكتابة والقوانين ، الخ . وذهب إلى حد استبعاد المحور أو الجازع (Essieux) .

اعتباراً من تلك الفترة ستشهد البلاد تعاقب مراحل الوحدة والتجزئة ، التي سوف تمارسُ غزوات « برابرة » الشمال ، في خلالها تأثيراتٍ متناقضة ، تارةً مفكّكة وتارةً موّحدة . إن سلالتي هان ، اللتين خلفتا كين (القرن الثاني ق.م. ، القرن الثاني م.) حافظتا خلال أربعة قرون على وحدة الدولة المركزيّة ، واحتوتا الهونز (إكزيونغنو) وقامتا بغزو واحات آسيا الوسطى : إكزجيانغ ، « الحدود الجديدة » ، وتلا ذلك أربعة قرون « وسطى » من الانقسامات (القرن الثالث ـ القرن السادس) ساد خلالها البرابرة توبا Toba (المغول الأوائل) ؟ على شمال البلاد . ثم ، مع آل تانغ ، كانت العودة إلى الوحدة بفضل الأمبراطورية الارستقراطية طيلة ثلاثة قرون (من السادس إلى التاسع) ، تلتها ثلاثة قرون أخرى (من العاشر إلى الثاني عشر) من الانقسام ، لم يعد آل سونغ يسيطرون من خلالها إلّا على الجنوب ، وساد البرابرة كيتان (المغول الأوائل ؟) وجورشن (المنشوريّون) على الشمال . في القرن الثالث عشر ، حقّق المغول الجنشجيكانيّون وحدة الصين في ظلّ سلالتهم ، آل يوان ؛ وفي القرن الرابع عشر طردهم آل مينغ ، الذين أعادوا الامبراطورية الارستقراطية ، والذين سيغزوهم بعد ثلاثة قرون ، المنشوريّون ، مؤسسو السلالة الامبراطورية الأخيرة ، سلالة آل كينغ . إنهم مستبدّون متنوّرون على رأس مجابهة يخوضها مجتمع مفكك مع برابرة الغرب .

هكذا تكوّن المدارُ الحضاري الصيني ، على امتداد أربعة آلاف سنة تقريباً من التاريخ ، شهدت من جهة شعب هان يملأ رويداً رويداً هذا الإقليم الواسع ، ويضفي الطابع الصيني على الشعوب التي يصادفها فيه أو التي كانت تأتي إليه ؛ وشهدت من جهة ثانية قيام الدولة الصينية ، عبر سلسلة تذبذبات على مدى أجيال ، وامتدادها لتشمل هذا المجال كلّه ، وأيضاً لكي تتخطّاه من خلال احتلال أقاليم « خارجية » ، مأهولة بغير شعب هان : الأكزينجيانغ

التركي ، منذ آل هان ؛ التيبت ، منذ المغول يوان ؛ مونغوليا منذ آل كينغ . في الحقيقة ، تبدو «امبراطورية الوسط» كأنها قد اكتفت بهذا القدر من التوسع المحدود ، ولم تهتّم أبداً بالبرابرة الذين يعيشون فيما يتعدّى تلك الحدود . وحدهم المغول يوان ، المنطلقون من رؤية عالميّة حقاً ، سينتهجون سياسة امبرياليّة تتعدّى ضمّ منطقة نان ـ زاو المُهنّدة (يونان) ، إلى شن حملات ترمي إلى استتباع أو احتلال الهند الصينية ، اندونيسيا ، وتتعدّى الضمّ المؤقّت لكوريا ، إلى غزو اليابان . ومعهم ، كانت الامبراطورية مدفوعة ليس فقط لتغطية المدار الذي يقطنه آل هان ، بل كل المدار الحضاري الصيني ، وأكثر من ذلك أيضاً ، لأنّهم اغتصبوا المدار الحضاري الهندي بكل تصميم . ومما لا شك فيه أن الأمر لا يتعلّق هنا فقط بطموح صينيّ حقاً . . .

III . الحضارة الصينية والبلدان المتأثرة بها

من السّمات المميّزة للحضارة الصينيّة ليس كونها من صنع الصينيّين وحسب ، بل كونها أيضاً قد انتشرت فيما يتعدّى مدارهم السّكني . يمكنُ لثلاث سمات أساسيّة أنْ تكشف ذلك التأثير الحضاري للصين خارج حدودها السياسيّة : الكتابة ، الفكر الديني ، النظام السياسي . . . فمنذ تشي هوانغدي ، يملك الصينيّون منظومة كتابة واحدة تطوّرت طبعاً على امتداد 22 قرناً ، ولكنْ بوصفها ، عموماً ، كمؤسسة امبراطوريّة وحيدة . في المقابل ، لم تتطور اللغة المحكيّة تطوراً كبيراً وحسب ، بل كان مختلفاً باختلاف الأقاليم ، إلى حد أنّ ما اتفق على تسميته اللغة الصينية ، يشتمل على مجموعة تزيد عن ست لغات محكيّة محليّة اختلفت اختلافاً كبيراً لدرجة أنها لم تعد قابلة للتفاهم فيما بينها ؛ ويمكن في مجال آخر التردّد في وصفها بـ « لهجات عامية » ، وعندها تُعدّ كلغات متمايزة ، مثلما هي متمايزة اللغات الرومانية مثلاً .

لكنّ المنظومة الكتابيّة القائمة على أحرف تمثّل أفكاراً ـ Les idéogrammes ـ وليس أصواتاً ، تسمح بأن تبقى مشتركة حتى عندما يختلف اللفظ . فلم يعد هناك تطابق بين الشكل المكتوب والشكل المحكي : فكلّها

تمثّل مفهوماً واحداً بحرف واحد ، لكنّ كلاً منها يمكن أن يُترجم بلفظة مختلفة ؛ وسيكون لكل منها نفس الفهم للنص ولكنها من الممكن أنْ تكون لها قراءة شفهيّة خاصة . وهكذا ، كانت الكتابةُ الصينيّة قد أصبحت رابطة وحيدة بين جميع الصينيّين فيما يتعدّى لهجاتهم العاميّة ؛ كذلك الحال بين الهانز والأقليّات أيضاً ؛ وأيضاً بين الصينيّين والشعوب المجاورة التي تبنّت هذه السمة الخاصة بالحضارة الصينيّة : الكوريّين ، اليابانيّين ، الفيتناميّين الذين تعلّم مثقفّوهم تكلّم الصينيّة وكتابتها ، ولكن يمكن عندهم الانتقال مباشرةً من اللغة القوميّة إلى الرموز الفكريّة . وبالتالي رابطة الكتابة الفكرية المشتركة هذه هي التي جعلت الشعوب المتجاورة الثلاثة تتمكّن من بلوغ كل الأدب الصيني ، حتى دون أنْ تتكلم الصينيّة ، وتمكّنت في المقابل من رؤية نصوصها مقروءة في كل المدار الحضاري الصينيّ .

مع الشكل والمضمون : لم تكن الصين تنشر ناقلاً ، هو الكتابة ، وحسب ، بل كانت تنشر كل فكرها : كتبها العلميّة ، رموزها ، وبالأخص نصوصها الفلسفيّة والدينية . هكذا ، نقلت الصين لجيرانها منظومتها الدينيّة المعقّدة المبنية على أخلاقية مدنيّة تدور حول احترام الأسرة والدولة ، الكونفوشيوسيّة ، وعلى ديانة فرديّة ، وفوضويّة ذات نزعات سحرية وتعويذيّة ، الطاويّة ، وكلتاهما ولدتا في الصين ، في القرن الخامس ق.م. ، وانضاف إليهما في بداية التقويم المسيحي ، الدينُ البوذيّ ، القادم من الهند . أو بالأحرى انضافت إليهما صيغة متأخرة للبوذيّة ـ وهذه في أصلها دين خلاص يستبعد كل إله وكل إكليروس ـ ، صيغة تقوم على عقائد شبه مُشركة ، وعلى الزّهد والطقوس والاستعانة بالرهبان البوذيّين . إن هذه البوذيّة الماهايانيّة ، التلفيقيّة جداً ، التي تضمّ معابدُها إلى يمين تمثال بوذا ، تمثال كونفوشيوس ؛ وإلى اليسار تمثال لاوتشي ، مؤسس الطاويّة ، التي انتقلت إلى كوريا واليابان والفيتنام ، مع الأخلاق الكونفوشيوسيّة والتصوّف الطاوي ، الأكثر قدماً : « ثلاثة أديان تشكّل عائلة واحدة » أو سان ـ جياو San- Jiao .

أخيراً ، إلى جانب الفكر الديني ، هناك شكل التنظيم الاجتماعي السائد : النظام الأمبراطوري حيث العاهل مفوّض من السماء ، وتخدمه طبقة

نبلاء محاربين ، ذات نزعة إقطاعيّة نسبيّاً ، وبيروقراطيّة مختارة باعتناء شديد . إنه النموذج الأول للدولة الاستبداديّة الشرقيّة ، ذات المنجزات الضخمة ، التي تحيط باقتصاد زراعي منتج جداً وشبكة حضريّة متطورة ، منتظمة ومترتبة وفقاً لمرتبة العاصمة : شانغان (إكزيان) ليويانغ، كايفنج ، هانغزو وبكين في الصين ، نارا ، كيوتو وطوكيو في اليابان ، بيونغ يانغ وسيول ، بين مدن أخرى ، في كوريا ، هانوي وهيي Hue في الڤيتنام .

مدار حضاري واحد ، تتقاسمه أربع أمم ؛ الشّرق الأقصى انشقّ في القرن التاسع تحت تأثير التغلغل الغربي . والصين وقعت تحت نفوذ الأمم الأوروبيّة ، بريطانيا العظمى ، روسيا ، فرنسا ، ألمانيا ، الخ ، التي تقاسمتها بشكلٍ منتظم (مناطق نفوذ ، امتيازات مرفأية ، استثمار المصالح العامة ، الخ) فرنسا استعمرت الڤيتنام . وحدها اليابان ردّت مبكّراً ، وقرّرت أن تمتلك بنفسها التقنولوجيا والتنظيم السياسي والاجتماعي الغربي . الأمر الذي سمح لها ، في مطلع القرن العشرين ، بضمّ كوريا والاشتراك في نهب الصين اقتصادياً . وفي القرن العشرين تفاقم الانقسام . فبعد نصف قرن من الحروب الأهلية والخارجية ، تبنّت الصين ، وكذلك كوريا الشماليّة والڤيتنام ، النموذج الإنمائي السوڤياتي . وحاولت اليابان ، من خلال الحرب العالمية الثانية ، أن تفرض نفسها كزعيمة سياسية واقتصادية لآسيا الشرقيّة ، « مجال الازدهار الآسيوي المشترك » ، وبعد هذا الفشل الامبريالي ، انطلقت في عملية تصنيع متصاعد من الطراز الرأسمالي ، جعلت منها بعد ربع قرن ، القوّة الاقتصاديّة العالمية الثالثة . وقلّدت كوريا الجنوبية وجزيرة يوان الصينيّة (التي يمكن أنْ نقرّب منها إقليم هونغ كونغ ودولة سنغافورة التي تضمّ 90٪ من الصينيّين) النموذج الياباني بكل حزم ، وتوصلتا بسرعة إلى المرتبة الأولى بين البلدان الصناعيّة الجديدة . والآن ، المدارُ الحضاريّ الصينيّ هو مركز تنافس نموذجي بين نموذجين للتنظيم والتنمية ، متناقضين ظاهريّاً ، لكنهما يمكنهما أنْ يظهرا متكاملين تماماً في منظار تصفية الصين للآثار الماويّة ، حيث يتعيّن على صيغة « بلد واحد ، ونظامان » أنْ تسمح باستدماج هونغ كونغ (سنة 1997) وربما باستدماج تايوان

غير أن ربيع بكّين ونهايته المفجعة في الرابع من حزيران/ يونيو 1989 ، أظهرا مدى استمرار مصير الصراع مجهولاً في الصين ما بين القوّتين الأساسيّتين المتعارضتين . من جهة القوّة التحديثيّة التي أبرزها الطلاّب والمثقفّون ، والتي تعبّر ، على غرار بقيّة العالم ، عن التوجّه نحو ديمقراطيـة كانت الصين قـد عاشت مقدّماتها المضطربة ما بين 1911 و 1927 . ومن جهة ثانية ، القـوّة المحافظة ، النازعة إلى إبقاء النظام التوتاليتاري ، والمعبّرة عن نفسها اليوم من خلال ايديولوجيا ماركسيّة ـ لينينيّة جرى التخلي عنها في أماكن أخرى ، ولكنها تسير في الخط المستقيم للتراث الاستبدادي الأكمل ، البالغ من العمر ألف سنة ، والذي جعل القادة المنحبسين في مدينة رونغناهاي الجديدة المحرّمة ، المجاورة للقصر الامبراطوري المتحوّل مُتحفاً ، يمارسون سلطة مطلقة حدّها الوحيد مدى قوتها العسكرية . لقد انهار هذا النمط المجتمعي السياسي في أوروبا الشرقيـة لأنه كـان ، فوق ذلـك ، عاجـزاً عن توفيـر الحد الأدنى من الاستهلاك الاقتصادي اليوميّ . أما قوّة النظام الصيني فتمكن في كونه ، منذ 1984 ، قـد حـرّر الـدورات الـزراعيـة والتجـاريـة (التخلي عن التجميـع الزراعي ، وإقامة نظام « المسؤولية » الخاصة ، الخ .) مماسمحبحد أدنى من اليُسْر للجماهير الريفيّـة والمدنيّـة وجعل الاصـلاحات السيـاسية غيـر محتمة تماماً . إنّه وقف تنفيذ كسبته السلطة بمهارة لأنها اتّصفت بحكمة الإنكار الذاتي على الصعيد الاقتصادي ، لكي تحافظ على امتيازاتها السياسية المطلقة .

الفصل الثالث

جنوب شرق آسيا وأوقيانيا

I . جنـوب شـرق آسيـا

1 . التجزئـة الطبيعيّة

يبدو أنَّ شبه جزيرة الهند الصينيّة ، خلافاً لجارتيها الهندية والصينيّة ، لم تكن تشكّل مجالاً واسعاً من السهول والسفوح المؤاتية كفاية لولادة حضارة كبرى مُبكّرة . فهي إذْ تتوزّع بين خمس أودية ضيّقة ومتعرّجة ، لا تتوسع في دالات (دلتات) إلاّ على مقربة من البحر ، إنّما تشكّل عقبات كأداء في وجه المواصلات الداخليّة . زدْ على ذلك ، أن جذر شبه الجزيرة المنطلق من سطح التيبت الأعلى كان بالحريّ يعزلها أكثر مما كان يربطها ببقية آسيا : فلا تأثيرات ثقافيّة ملحوظة ، ولا حركة شعوب كبيرة تمكّنت من اختراق تلك المنطقـة ، خلافاً لدور الحبل السرّي الذي لعبته الطرقات الآسيوية الوسطى بالنسبة إلى الصين أو الهند . إنّما تمكّن بعض السكان الجبليّين ، لا غير ، من التغلغل والنزول نحو دالات الجنوب ، غير أنّ التأثيرات الحضارية أو الفتوحية جاءت من البحر .

ويـلاحظ التفكك ذاتـه والأنطواء نفسـه بالنسبـة إلى الأرخبيل الهنـدي الداخلي الذي يكمّل شبه الجزيرة الهندية الصينيّة : فهو لم يتلقّ إلاّ من الشمال التيارات البشرية التي كانت قـد عبرت من خـلال الهند الصينيّـة ، ولـم تأت المؤثرات اللاحقة إلاّ من البحر . مع هذا التصويب وهو أنّ هذا الأرخبيل لم يصبح واحداً ـ وهو الأوسع من خيث أراضيه البارزة ـ إلاّ في العصر ما بعـد

الجليدي . ففي العصر الجليدي كان مستوى البحر منخفضاً لدرجة أن معظم الجزر الحاليّة كانت منصهرة مع القارّة الآسيوية من خلال شبه جزيرة أكبر بكثير من الهند الصينية الراهنة ، أو حتى من الهند . إنها شبه جزيرة كان يفصلها بعض المضائق بالذّات عن الجزيرة الضخمة المكوّنة من غينيا الجديدة وأوستراليا وتاسهانيا الراهنة . هذا يعني أنّ حضارات العصر الباليوليتي استطاعت بكل بساطة أن تكون مشتركة بين كل جنوب شرقي آسيا الراهن ، يوم كانت شبه الجزيرة والجزر مرتبطة ببعضها . وبالتالي ، مع العصر النيوليتي سيكون في الإمكان لحظُ تجزئةٍ أكبر ، ناجمة عن العقبة البحريّة .

2 . أعـراق ولغـات

إنّ وجود شبه جزيرة جنوبيّة ـ شرقيّة آسيوية كبرى في العصر الجليدي هو الذي يفسّر وجود عناصر زنجيّة ما زالت تعيش في المناطق الجبليّة ، في الفيليبين كما في أندونيسيا ، في ماليزيا كما في جزر آندامان . ثم إن الأعراق المتأخرة تموضعت : ماليزيّون أوائل يتميّزون قليلاً جداً بمزايا مونغوليّة ، ويقطنون داخل الأراضي ؛ ويمارسون الزراعات الجوّالة على أساس الإحراق ، وماليزيّون مونغوليّون بشكل أوضح ، استوطنوا لاحقاً على امتداد السواحل وادخلوا زراعة الأرّز ، والحديد والملاحة ، وتمثلهم شعوب تاريخية كبرى كالخمير والشاميين والماليزيّين . وأخيراً ، هناك العناصر المغوليّة الجنوبيّة ، القادمة في الحقبة التاريخية من الصين الجنوبية : العناصر التيبيتية ـ البرمانية ، الطاويّة ، الخ .

بقي من هذه الموجات المتعاقبة اللغاتُ المنتمية إلى عائلاتٍ شتى . فمن بين المجموعات الزنجيّة ، هناك فقط الأندامانيّون ، المعزولون في أرخبيلهم ، هم الذين احتفظوا بلغاتهم « الهندية ـ الباسيفيكيّة » التي تقرّبهم ، من هذه الزاوية ، من شعوب البابو ، ويرمزون بذلك إلى أقدم أثر لغوي في المنطقة . أما الزنوج الآخرون فقد تبنّوا لغات الجماعات المجاورة : الجماعات الأوسترونيزية في الأرخبيل ، والأوسترو ـ آسيوية في القارّة . فالأسرة الأوسترونيزية تسود تقريباً بلا منازع في الأرخبيل الماليزي ؛ إلاّ أن

حضورها في تايوان ، مع الغوشانيين ، وفي الهند الصينيّة ، مع الشّاميين (Chams) يدعو إلى الاعتقاد بأن الأوسترونيزيّة ربما كانت أكثر انتشاراً في القارة نفسها . وتتمثل الأسرة الأوسترو آسيوية بأربع مجموعات من البقايا التي تشهد على امتدادها القديم في كل جنوب آسيا : الزنوج السنويّون والسمانغيّون في ماليزيا ، المتّواطنون الأصليّون في جزر نيقوبار ، الجماعة المونية ـ الخميرية môn- khmer التي كانت تغطي في الماضي القسم الأكبر من شبه جزيرة الهند الصينية ، قبل وصول البرمانيين والطاوّيين ؛ والجماعة الموندا من سكّان الهند الوسطى الأصليّين . والأسرة اللغوية الثالثة الجنوبية ـ الشرقية الآسيوية (الصينيّة ـ التيبيتيّة) وصلت إليها في الأزمنة التاريخية مع الجماعات التيبيتيّة ـ البرمانيّة ، الكام ـ تاي والمياو ـ ياو . وهنا كما في أي مكان آخر ، لم تشمل التباينات اللغوية دائماً تباينات المجاميع العرقيّة ، لأنّ كثيراً من الجماعات تمكّنوا من تغيير لغتهم . لكنّ توزيع النماذج الطبيعية ، وأنماط المعيشة والقرابات اللغويّة ، يقدّم أدلّة مهمّة على صعيد وصول واندماج موجات السكان المتعاقبة .

3 . التهنيد (Indianisation)

جرى تحديد عدّة حضارات قبتاريخيّة ، خاصّة بجنوب شرقي آسيا ، انطلاقاً من مدن أثرية في الڤيتنام بالذات : الهوابينهيان (أو الباكسونيان) في العصر الباليوليتي ، وفي العصر النيوليتي « حضارة الطبول البرونزية » (حضارة دونغسون) التي تضمّ إليها الحديد ، الذي انتشر في شبه الجزيرة وفي الأرخبيل في الألف الأول ق.م. إلاّ أنّ المجتمعات التاريخية الأولى لم تظهر إلاّ تحت ضغط التأثير الصيني ، والتأثير الهندي بوجه خاص .

إنّ التدخّل الصينيّ هو الأول والامبريالي بكل وضوح : فالبلاد الڤيتناميّة ، المحصورة آنذاك ببلاد الباك ـ بو (تونكان) كانت ملحقة بالصين سنة 111 ق.م . وستبقى ملحقة بها على مدى ألف سنة ، الأمر الذي سيطبع الثقافة الڤيتنامية بطابع صيني ثابت ، وفريد في جنوب شرقي آسيا . إنها الإثنيّة الوحيدة المُتصيننة أي التي ستستعمل الكتابة الفكرية الصينية ، وتعتنق البوذية الماهايانية والطاويّة وتبني دولة امبراطورية قائمة على البيروقراطية وكبار

الموظفين الكونفوشيّين .

أما تهنيد بقية المنطقة فسوف يجري بكيفية مختلفة تماماً : بوجه عام من خلال التغلغل السلمي لتيارات اقتصادية وثقافية تنقل الأفراد والجماعات الصغيرة من الملّاحين والتجّار والرهبان البوذيين والبراهمة وربّما الأحداث المغامرين ؛ ولكن في الظاهر بدون حملات غزو واستعمار . فمنذ قبل الميلاد ، كان العالم الماليزي ، بالنسبة إلى الهنود ، « أرض الذهب » والبهارات والأخشاب العطريّة والصمغيّات المعطّرة التي كان الغرب يبتاعها ويستقدمها من « خزّان الذهب » : شبه جزيرة ماليزيا .

وبالتالي كانت الإمارات الرئيسة في كل الجنوب الشرقي الآسيوي تجتذب إليها المستشارين والمثقفين والحرفيين والفنّانين والكهنة والمربين والأطر المدنيّة والعسكرية القادمين من الهند ، المنتظمة منذ أجيال في مدن ودولٍ وامبراطوريّات . عندها ولدت حضارة بلاطيّة ، راقية جداً ، تعتنق في آنٍ البوذية المحدودة التداول (الهينايانيّة) ، القريبة من المصادر ، البسيطة والمحبوبة ، والبراهميّة ، مع طقسها الملكيّ ، ومنظومتها الطبقيّة المخفّفة ، المحصورة في نطاق الفئات الحاكمة ، وبالطبع كل الأدب السنسكريتي ، القدسي ، الملحمي والعلمي . وشيئاً فشيئاً ، ظهرت من خلال هذا التهنيد التدرّجي الكثيف والعام ، المرافىء والمدن والدول التي سيرتدي بعضها الرداء الوطني . ففي غضون الألف الأول ، ظهرت ممالك فو ـ نان ، الخميرية الأولى (ما بين القرن الثاني والسابع) ، وممالك الشاميين أو الشامبا (القرن الثاني ـ القرن الخامس عشر) ، في جنوب الڤيتنام ، وممالك الماليزيين في شبه الجزيرة أو في سومطرة (امبراطورية شريڤيجايا ، القرن السابع ـ الرابع عشر) وممالك ماتارام الجاوانية (القرن التاسع ـ الثالث عشر) والموجوپاهايتية (الثالث عشر ـ السادس عشر) ، امبراطورية الخمير في آنغكور (الحادي عشر ـ الخامس عشر) ، ممالك مون (الرابع ـ الرابع عشر) ، التي قضت عليها غزوات البيرمانيّين (القرن الخامس والتاسع) والطاويّين (Thaïs) (القرن الثاني عشر) القادمين من يونان ، المُهنّدة بدورها : نان ـ زهاو سابقاً (القرن الثامن ـ الثالث عشر) .

4 . التجزئة الحديثة

اتسم القرن الثالث عشر ، في جنوب شرقي آسيا ، أولاً بزلزال سياسي : فقد استولت الصين المنغولية على التيبت وتان زهاو ، وحاولت غزو بورما أو استلحاقها ، وكذلك الحال بالنسبة إلى الڤيتنام (التي كانت قد تحرّرت في القرن العاشر) ، والشامپا وكمبوديا وجاوا . ولئن كانت القُبلة ـ خان (قوبيلاي) قد فشلت ، فإن بورما وتايلندا الحديثتين ستولدان، على الأقل ، من حركة الشعوب المنطلقة آنذاك ، وسوف تتمكن الڤيتنام من تصفية الشامپا . لكنَّ الزلزال الأعمق ، الروحيّ ، كان مُضاعفاً . فمن جهة ، انتشرت البوذية الهينايانيّة ، التي جرى إصلاحها في سري لانكا (القرن الثاني عشر) ، وشاعت في أوساط البُرمانيين والطاويّين والخمير ؛ والبوذية هذه ديانة مطهَّرة ومبسَّطة ، حلّت نهائياً محل الطقوس الملكية الهندوكيّة في قلب الجماهير وَصَفَّتْ الثقافة السنسكريتيّة وكل التمثّلات الإلٰهيّة التي شكّلت عظمة أنجكور Angkor . وفي الفترة نفسها ، كان الإسلام الآتي من الهند ، التي يسودها سياسياً ، قد طاول في القرن الثالث عشر ، ماليزيا وأندونيسيا التي سيسود فيها تماماً بعد قرنين ، ما عدا جزيرة بالي ، الأرض الهندوكية الوحيدة الباقية خارج الهند . إن هذا الإسلام الأندونيسي القوي جداً من الناحية العددية (تعدّ أندونيسيا اليوم البلد الأول من حيث عدد المسلمين) ، بعيد عن المصادر ، وهو عملياً ، تلفيقي جداً ، يتضمّن الكثير من التقاليد الهندوكيّة ، البوذية والأرواحيّة. ولقد توقف زحفه الجغرافي في القرن السادس عشر ، مع وصول البرتغاليّين إلى مالاكا ومولیك ، ووصول الإسبانيّين إلى الفيليبين . ذاك أن الإسبانيّين المفعمين تماماً بروح الحملات الصليبيّة ومعاودة الغزو ، أوقفوا المسلمين في ميندانو ، حيث سيظلّون يعرفون حتى اليوم باسم Moros (المغاربة) ؛ وجعلوا من بقية جزر الفيليبين البلد المسيحي الوحيد في آسيا الوسطى . ثم تقاسم النيرلنديون والبريطانيّون الهيمنة على العالم الماليزي في القرن السابع عشر ، وسوف يسيطرون عليه اقتصادياً وسياسياً طيلة ثلاثة قرون .

في شبه جزيرة الهند الصينية ، كانت الڤيتنام عُرضة من جانب المينغ

لآخر ضم (1414 ـ 1428) لن تتحرر منه إلاّ بواسطة الدمج المجرَّب من قبل،ضد المنغوليين ، ما بين حرب العصابات وحرب الحركة . وفي القرن التاسع عشر ستقع شبه الجزيرة بين فكيّ كماشة الامبراطورية البريطانية في الهند الممتدة حتى بورما ، وفرنسا التي احتلت الڤيتنام وكمبوديا واللاوس ، ولم تترك في حالة استقلال سوى دولة تاي الحاجزة (سيام) ، المقسَّمة إلى مناطق نفوذ .

خرج جنوب شرق آسيا من تاريخه المتعدّد المعاني ، مجزأً إلى عشر دول ـ أمم قائمة على الثقافات المطبوعة كل منها بطابع التأثيرات المتباينة ، المتعاقبة أو المتنافسة : التأثير الصيني ، الهندي ، الإسلامي والأوروبي . وبالتالي لا تشكّل هذه المنطقة مداراً حضارياً خاصاً ، بل تشكّل إقليماً تتنافس فيه الحضارات المجاورة أو البعيدة . ولا يزال هذا التقسيم قائماً في الربع الأخير من القرن العشرين من خلال الخيار الماركسي الذي اتخذته ثلاثٌ من تلك الدول : الڤيتنام ، اللاوس ، وكمبوديا ، والذي يجعلها تنحاز مباشرة للنموذج السوفياتي ، ويضعها في مواجهة الصين ؛ بينما تسود في البلدان الأخرى نماذج متباينة من الاقتصاد الحر أو الموجّه نسبياً .

II . البرازخ الأوقيانية

باستثناء أوستراليا التي ظلّت بالغة الأصالة ، فإنَّ حزر المحيط الهادي تنتمي إلى عناصر بشريّة متقاربة جداً ظهرت بينها حضارتان رئيستان : الحضارة الماليزية والحضارة البولينيزية . فمن الوجهة الأنتروبولوجيّة تنتمي غينيا الجديدة والبرازخ (الأرخبيلات) المجاورة إلى العرق الماليزي ، وهو واحد من ثلاثة أعراق سوداء ؛ مع بعض الجماعات الزنجيّة في داخل جبال غينيا الجديدة . أما الأرخبيلات الأخرى ، الأكثر تشتتاً ، من الميكرونيزيا حتى جزيرة الفصح (Pâques) ، ومن زيلندا الجديدة إلى هاواي ، فهي مأهولة بهذا العرق البولينيزي ، المتصّل بالأعراق الصفراء ما قبل المونغوليّة . وعلى الصعيد اللغوي تسود أسرتان على الجميع : الأسرة الهندية ـ الباسيفيكيّة ، الممثّلة في أغلبية الاثنيّات البابوزيّة ـ الغينيّة الجديدة ـ « البابو » ـ والأسرة الأوسترونيزية ، الممثلة في جماعتين : الجماعة الميلانيزيّة على أطراف غينيا الجديدة وفي

البرازخ المجاورة ، والجماعة البوليزية في أماكن أخرى .

هناك حضارتان تقاسمتا الجزر . إحداهما ، قائمة في غينيا الجديدة ، قاربت المرحلة النيوليتية مع زراعة القلقاس والإنيام (من الدرنيّات) وتربية الخنزير ، منذ الألف السابع ق.م. وراحت تتجزأ ما بين عدّة أعراق وأقوام . وثانيتهما ، جلبها أهل البحر ، البولينيزيّون ، وظلّت أحادية العرق . فقد ظهرت مع صناعة الخزف ، المعروفة باسم Lapita ، في مطلع الألف الثاني ق.م. على سواحل غينيا الجديدة ، وفي البرازخ الميلانيزيّة . ثم في نهاية الألف الثاني ، هاجرت إلى جزر الفيجي ، ومن هناك ، إلى جزر تونغا وساموا

حيث توطنت ، على امتداد الألف الأول ، لتنتقل بعد ذلك إلى جزر المركيز ، ومن هناك ، إلى بولينيزيا كلها ، من الهاواي إلى جزيرة الفصح وزيلندا الجديدة ، خلال الألف الميلادي الأول . إن البولينيزيين (Maoris) المعتاشين أساساً ، في بيئة مدارية استوائية ، من صيد الأسماك ، وجوز الهند ومن نبات القمح وشجر المرز وتربية الخنزير والكلب والفأر ، قد تحوّلوا في بيئة زيلندا الجديدة المعتدلة ، إلى صيّادي طيور وإلى بساتنة يعيشون في مجمّعات محصّنة .

أما وصول الأوروبيين ، في القرن السادس عشر ، فقد أطلق مساراً بطيئاً من المثاقفة لم يُترجم إلاّ في القرن التاسع عشر بالاستيلاء على البرازخ ، التي تتقاسمها المملكة المتحدة ، فرنسا والولايات المتحدة وألمانيا . وظهر اقتصاد الزّرع في بعض الجزر الوسطى بفضل اليد العاملة المستوردة : الهنود في جزر الفيجي ، اليابانيّون والصينيّون والكوريّون والفيليبينيّون في جزر الهاواي . الأمر الذي سيؤدي إلى توازانات عرقية جديدة . كما أن الاستعمار السكاني جلب الفرنسيين إلى كالدونيا الجديدة ، والأميركيّين إلى الهاواي ، والبريطانيّين إلى زيلندا الجديدة . وتُرجمت إزالة الاستعمار بإنشاء عشرين دولة مستقلة أو شبه مستقلة ، يشكّل قسم كبير منها دويلات صغيرة جداً ، وتدور اقتصادياً في فلك القوى الصناعيّة المجاورة حيث هاجر قسم متزايد من سكّانها الناشطين . إن أوقيانيا المجزّأة جداً والمفكّكة ثقافياً في العمق (اللغة الإنكليزية واللغة الفرنسية) ودينياً (التنصير) واقتصادياً ، تبدو قد تطوّرت ، أقلّه على صعيد

كياناتها الصغرى ، في اتجاه الاندماج الأوثق مع الحضارة الغربيّة .

III . أوستراليـــا

عاشت القارّة الأوستراليّة تجارب بيوجغرافيّة فريدة : إنّ انفصـالها عن آسيا وعن امتدادهـا الأندونيسي من خـلال المضائق البحـريّة ، جعلهـا قارّة معزولة ، سواء على صعيد الحيوان أم على صعيد البشر . فعلى صعيد الحيوان عزلت القطيعة ، إلى جانب بهائم أخرى ، سلسلة كاملة من الثدييات البدائية ـ الوحيدات المسلك ، الجرابيّات ـ التي قضت عليهـا الثدييـات المشيميّة في أماكن أخرى، والتي لم تتمكن من اجتياز مضائق خطوط والاس (شرق بالي وكاليمانتان ـ بورنيو) وڤيبر (شرق تيمور وكيرام Céram) . وبالنسبة إلى البشر وقعت ظاهرة مماثلة . فبعض الموجات البشرية استطاعت العبور في مرحلة من مراحل الجليد الكبير الذي خفض مستوى البحر وسمح بظهور أكبر عدد من « الجسور » بين جنوب شرق آسيا والقارة الأوسترالية ـ الغينيّة الجديدة . ثم مع بعض الذوبان في الجليد ، استطاع مستوى البحر أن يرتفع ارتفاعاً كافياً ليحول دون عبور الأجيال التالية للمضائق .

هذا الأمر هو الذي يفسّر كون القارّة الأوستراليّة قد استوطنها ، في أثناء العصـر الجليدي الأخيـر ، سكّـانٌ من أولى الأعـراق ذات الجلد الـزنجيّ ـ الأوستراليون القدامى ـ ، حملوا معهم حضارة پـاليوليتيّـة ، لكنّ أية جمـاعة أخرى ، أكثر تقدّماً على الصعيد التقنولوجي ، لم تتمكن من الانضمام إليهم ، قبل وصول الأوروپيّين ، وبالتالي يشكّل المواطنـون الأصليّون في أوستـراليا منطقة معزولة فريدة من نوعها ، على صعيد عدد سكانها (300 000 نسمة عند وصول الأوروپيّين) وعلى صعيد مدّة انعزالها (أكثر من 30 ألف سنـة) ، ومتمايزة بشكل واضح جداً عن بقية البشريّة ، سواء بسماتها الطبيعية (جلد أسمر ، شعر أجعد ، وفرة نمو الشّعر على الجلد ، الخ) أم بمزاياها اللغوية (200 لغة لا تزال حيّةً اليوم ، في ثلاثين أسرة متقاربة فيما بينها ، لكنّها غير متقـاربة مـع أية لغـة أخـرى في العـالم) والثقـافيّـة (حضـارة ظلّت محض

باليوليتيّة ، لكنّها مزوّدة بأدوات أصيلة ، مثل الآلة المرتّدة) .

إنّه مجتمع محافظ وجامد بشكل خارق : « كانت الأدواتُ المكتشفة على ضفة بحيرة مونغو ، والتي تعود إلى الألف الثلاثين ، مماثلة لما كانت عليه دائماً الآلات المستعملة عند وصول الأوروبيّين ؛ لم يحصل أيّ تقدّم في خلال ثلاثمائة قرن) (P. Gourou, 1982, P. 124) . وذلك ، على الرغم من كون الانعزال لم يكن صارماً على الاطلاق ؛ فهناك صيّادون ماليزيّون كانوا يأتون إلى سواحل أوستراليا . « وبما أنّ هؤلاء الماليزيّين كانوا يقيمون علاقات سلميّة مع الأوستراليّين ، فقد كان في إمكانهم إنْ يعلّموهم الزراعة وتربية الماشية والتعدين وصناعة الخزف ؛ حتى أن بعض الأوستراليّين ذهبوا إلى ماكاسّار ورجعوا منها وديّاً . لم يحدث أي شيء من ذلك كلّه ؛ فقد حافظ الأوستراليّون على تقنيّاتهم التقليدية التي كان يفترض بهم أن يعتبروها (ربما بحق) كأنها آلات مترابطة ولا يمكن الفصل بينها . أليس النّيْلُ من تقنيات الإنتاج يعني الحكم على النفس وفي وقت واحد ، بتغيير الأطر العائلية والاجتماعيّة التي كانت موضع تهذيب وصقل كبيرين ؟ » (المرجع السابق ، ص 125) . « فبالنسبة إلى المستوطنين البيض المتحمسين جداً في بداية القرن التاسع عشر ، الباحثين عن غذاء وعن بنية تحتية أساسية للحياة الحضريّة ، كان رفض السكان المحليّين بأن يتعلّموا مقوّمات الزراعة بمثابة مجابهة متواصلة [. . .] . وقد بيّنت الدراسة الموضوعيّة للسكان الأصليّين الذين يعيشون في مجتمعاتهم الخاصة بهم ، أنّهم يمارسون أنظمة توفّر لهم غذاءً مناسباً ، وأفق حياة رغيدة ، بمعزل عن وفَيَات الأطفال ؛ زدْ على ذلك أنها أنظمة كانت توفّر لهم إشباع حاجاتهم العاطفيّة لدرجة أنّ كثيراً من المجتمعات « الأكثر تقدّماً » كان يحسدها على ذلك » . (G. Clark, 1977, P. 483) .

لكنّ فهم الانثروبولوجيّين وعلماء ما قبل التاريخ ، قلّما ساعد الأوستراليّين ، الذين لم يكن أمامهم سوى التراجع الميداني أمام مدّ الاستيطان الأوروبي : فصارت أوستراليا بلداً يقطنه البيض مع أقليّة من السكّان المحليّين المعزولين في الهوامش الداخلية المقفرة : 000 150 نسمة أي 1٪ من

السكّان . ففي تاسمانيا المجاورة ، حيث كان يعيش فرعٌ من العرق ذاته ، معزولاً منذ أكثر من 12 000 سنة ، وكان يتكّلم لغات « هندية ـ باسيفيكيّة » على ما يبدو ، أي لغات قريبة من لغات البـاپو ، جـرى القضاء تمـاماً على السكان المحليّين ، وفي زيلندا الجديدة ، جرى تحويل الپولينيزيّين الماوريين (Maoris) ، على أيدي الاستيطان الأبيض ، إلى أقليّة (300 000 ، أي أقل من 1٪ من السكان) . وهكذا صارت الجزيرتان الكبيرتان في جنوب أوقيانيا امتداداً لأوروبا من حيث سكانها البريطانيين أو المتأنغلزين ، ومن حيث مستوى تطورهم الزراعي والصناعي الرفيع .

الفصل الرابع

المدار الحضاري العربي ـ الإسلامي

1 . المدار الثقافي والإطار الطبيعي

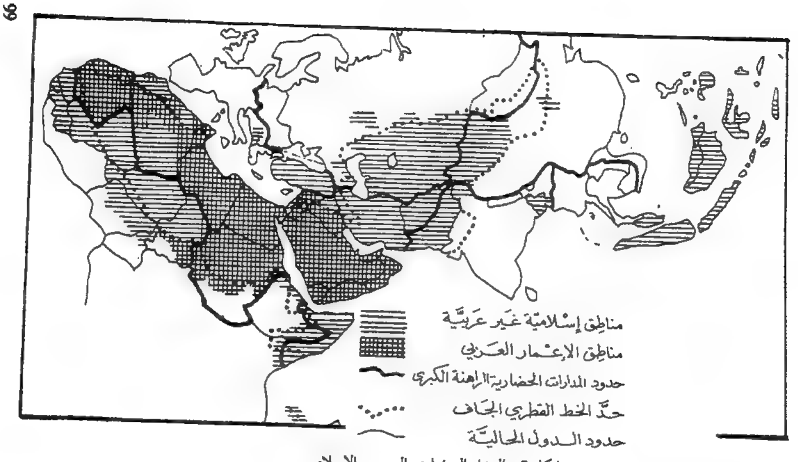
يُعدّ الدينُ الإسلامي من الديانات العالمية الكبرى الثلاث ، إلى جانب البوذيّة والمسيحيّة . فمن المؤكد أنّ المسيحية تتجاوزه من حيث عدد معتنقيها ، ولكنّ البوذيّة لا تتعدّاه ، إلاّ إذا دخل في عدادها كل سكّان المدار الحضاري الصيني ، الذي لا يحمل منها سوى صبغة غامضة . وإنّ الإسلام أقل انتشاراً من المسيحيّة الشائعة في كل القارّات . فقد بقي متمحوراً بوجه خاص حول مدار انتشاره الأول ، أي حول العالم العربي . وانطلاقاً من هذا العالم « قضم » الإسلام بنجاح نسبي المناطق المجاورة : جنوب أوروبا ، التي أُخرج منها لاحقاً ، السفح الإيراني ، آسيا الوسطى ، الهند ، العالم الماليزي ، والشريحة الصحراوية المحيطة بأفريقيا السوداء . يتعلّق الأمر هنا بمجال شبه متواصل ، يتسّم معظمُ سكّانه بسمة الإسلام ، الدين البنّاء جداً من الناحيتين الإجتماعية والثقافيّة .

وبالتالي قد يكون من المنطقي اعتبار كل هذا المجال الكبير بمثابة مدار حضاري واحد ، إذا كان الدين هو حقاً العامل الأكثر تحديداً . ولكنّ الأمر ليس كذلك : إذْ من المستحيل تقسيم أفريقيا السوداء إلى مدارين ؛ أحدهما إسلامي والآخر غير إسلامي ؛ وعدم الإحاطة بارتباط مسلمي آسيا الوسطى بالاتحاد السوفياتي وبالصين ، وإنكار الوحدة الثقافية لشبه القارّة الهندية ، حتى وإن كانت منقسمة سياسيّاً ، واعتبار الأندونيسيّين أقرب إلى العرب من بقيّة أمم جنوب شرقيّ آسيا . إنّ المدار الحقيقي الذي تهيمن عليه الحضارة الإسلاميّة ينحصر في قلب المجال الكبير المتأثر بالإسلام ، وعمليّاً ينحصر بالمناطق التي فتحها العربُ منذ القرن الهجريّ الأول (الميلادي السابع) والمستعرب بكامله

تقريباً : العالم العربي الحالي والعالم الإيراني . وبسبب من هذه الهيمنة التاريخيّة ، الثقافية بالأمس ، والعدديّة اليوم ، للعروبة ، نرى أن من الأفضل تسمية هذا المدار الحضاري الأكثر حصراً ، باسم الحضارة العربية ـ الإسلاميّة .

عمليّاً يتطابقُ هذا المدارُ أيضاً مع مجال جغرافيّ طبيعي مميّز جداً : مجال الخط القُطري الجافّ الكبير ، الذي يسدّ الميدان الأفرو ـ آسيوي ، وأطرافه شبه الإستوائيّة : المغرب العربي ، الصحراء ، المشرق العربي والهضاب الإيرانيّة . فلنلاحظ أن مناطق الانتشار التاريخي للإسلام تتطابق مع الامتدادات المباشرة لهذا العالم : المجالات السهوبيّة في آسيا الوسطى والهند ، شبه الإستوائية المتوسطيّة والساحليّة شبه الصحراويّة . ولنلاحظْ أيضاً أنّ هذا العالم تخترقه خطوط الواحات الكبرى التي كوّنت ثلاثاً من بؤر ظهور المجتمعات النيوليتية ، ثم التاريخية ، في العالم القديم : مصر ، الهلال الخصيب وبلاد السّند (الهندوس) . وأنّه يؤدي مباشرة إلى بؤرة حضارية رابعة ، هضاب السفح الصيني ، مع وادي النهر الأصفر .

إنّ العالم العربي ـ الإسلامي هو أكثر من الخَلَف المباشر ، الجغرافيّ والتأريخي للحضارات التاريخية الأولى : فهو أيضاً متمّمها الإنساني ووريثها الثقافيّ . فالبشر هم أنفسهم ، وينتمون إلى صميم الأعراق الجنوبية البيضاء : المتوسطيّة ، الجنوبيّة ـ الشرقيّة ، الأناضوليّة والهنديّة ـ الأفغانيّة . واللغاتُ الحاليّة هي بناتُ لغات الأزمنة القديمة . فهي تنتمي إلى عائلتين متواصلتين منذ أربعة آلاف سنة : العائلة الأفرو ـ آسيويّة أو « الساميّة ـ الحاميّة » ، التي كانت تشمل اللغة الليبيّة ، المصرية القديمة ، الأكّادية ، العبريّة ، العربيّة ، وتشمل اليوم العربية والبربرية (berbère) ؛ والعائلة الهندية ـ الأوروبيّة المتمثلة جوهريّاً في الإيرانية بكل أشكالها المتعاقبة : الفارسيّة القديمة ، الفارسيّة الوسيطة والفارسية الحديثة . وباللهجات المتقاربة ، كالكرديّة والپاشتو (الأفغانيّة) ، الخ . وحدها زالت دون أن تترك آثاراً ، السومريّة والعيلمية élamite في بلاد الرافدين السفلى ، ووحدها انبعثت اللغات الأوراليّة ـ الالتيكيّة ، مع اللهجات التركيّة في تركيا وأذربيجان وتركستان .



شكل 7 ـ المدار الحضاري العربي ـ الاسلامي

1 . المناطق الإسلامية غير العربية ؛ 2 . مناطق عربية ؛ 3 . حدود المدارات الكبرى للحضارات الحاليّة ؛ 4 . حدّ الخط القطري الجاف الكبير ؛ 5 . حدود الدول الحاليّة .

أما الحضاراتُ والممالك ، التي تؤدي سلسلتُها إلى المجمّع الراهن ، فهي متواصلة : الحضارة السومريّة (والأكاديّة والعيلمية) في بلاد الرافدين السفلى (الألف الثالث) المتحوّلة إلى حضارة بابليّة (الألف الثاني) ستولد منها الامبراطورية الآشوريّة التي وحّدت لأول مرّة كل الشرق الأوسط من الهلال الخصيب إلى مصر ؛ الحضارة المصريّة الفرعونيّة ، مع الامبراطوريّة القديمة (الألف الثالث) ، والوسطى ، ثم الامبراطورية الجديدة ؛ والحضارة الفارسيّة ، مع الامبراطورية الأخمينيّة التي استأنفت الموروث الأشوري ، وأضافت إليه الأناضول وجزءاً من البلقان وكل الهضبة الإيرانيّة وواحات آسيا الوسطى ووادي الهندوس (القرن السادس) . إنها امبراطوريّة عالميّة غزاها إغريقُ الإسكندر (القرن الرابع) الذين لم يستطيعوا المحافظة على وحدتها السياسيّة ، لكنّهم أكملوا وحدتها الثقافيّة : وحدة حضارة هلينيّة تشمل الشرق الأوسط برمّته ، حيث انصهرت كل الموروثات القوميّة ، المنصبّة على الإسكندرية ، المدينة العالميّة ، والمدن الإقليميّة : انطاكية ، سلوقية ، برغام (Pergame)، أثينا. ثم أكملت الامبراطورية الرومانية ما بين القرن الثاني والقرن الأول ق.م. ، التوسع الهلينيّ ، غرباً ، حين وحّدت كل الأراضي الواقعة على البحر المتوسط . ومن ضمنها النصف الجنوبي والغربي من أوروبا . لكنها فشلت ، شرقاً ، في مواجهة الامبراطورية البارثية الأرشيديّة ، التي ستنازعها على بلاد الرافدين بلا طائل (في القرن الميلادي الثاني) . وعندما حلّت في القرن الثالث ، الأمبراطوريّة الفارسية الساسانيّة محلّها ، استقرت الحدود بين الغرب والشرق عند الفرات مقسّمة الميراث الهلينيّ ، وصائرةً من جرّاء ذلك ، في القرن الرابع ، حدوداً لنفوذ الديانتين الكبيرتين : المسيحية الرومانية ـ الشرقية والزرداشتيّة الفارسيّة ، المعبّرتين عن حضارتين متباينتين ، والعاملتين على التوليف بينهما .

2 . العرب ، الفُرس ، الأتراك

في المنطقة الواقعة جنوب هذا الحدّ بالذات ، في الجزيرة العربية المتروكة خارج الامبراطوريتين المتنازعتين ، وُلد الدينُ الجديد الذي سيكنس من الشرق الأوسط الديانتين السابقتين . وفي مدى قرن ، اعتباراً من العام

622م ، زرع العربُ الدين الجديد بقوّة في نصف الامبراطورية الرومانية التي غدت بيزنطية : سوريّة ، مصر ، شمال أفريقيا ، أسبانيا ، وفي كل الامبراطورية الفارسيّة ، حتى وادي الهندوس . لم يوقف الجيوش العربية إلاّ الفرنجة في بواتييه سنة 732 ، والصينيّون في تالاس سنة 751 .

جرى الفتح العربي الكبير في ظل الخلفاء الأربعة الأوائل والسلالة الأمويّة المتمركزة في دمشق . وفي سنة 750 بدأت المرحلة الثانية من تاريخ العالم الإسلامي ، مع السلالة العباسيّة التي نقلت الخلافة إلى بغداد ، المدينة الجديدة المُقامة في بلاد الرافدين لتخلف مدائن الساسانيّين وسلوقية اليونانيين ، اللتين فاقتْهما بأهميّتها . عندئذ وصلت القوّة العربية إلى ذروتها وسطعت بغداد على امبراطورية تمتدّ من الهند إلى إسبانيا ، جمعت التراث الهلينيّ ، في الجانب المسيحي من الاسكندرية إلى انطاكية ، وفي الجانب الفارسيّ من المدائن ، إلى المدينة الجامعيّة ، جند يسابور ، وفي المراكز الدينيّةفي بلاد الرافدين العليا : ادس ، نصيّبين ، اميدا ، حرّان . واتصلت بغدادُ مع براهماناباد ، عاصمة المصر الهندي الإسلامي في السند ، حيث جُمعت وتُرجمت كتبُ العلم الهندي ؛ ومع قرطبة حيث عمل مسلمون ومسيحيّون ويهود إسبانيّون على ترجماتٍ أخرى ، ستغزو أوروبا . واقترنت الجوامع الكبرى في سامراء (بلاد الرافدين) والقاهرة والقيروان (تونس) وسمرقند (آسيا الوسطى) ، بجامعات إسلاميّة ؛ وجرى في كل مكان درس تراث الحضارات الغابرة أو المجاورة : الطب اليوناني ، علم الفلك الهندي ، الرياضيّات الصينيّة ، الخ . في القرن التاسع ، أنشأ خليفة بغداد « دار الحكمة » التي ستضمّ مليون مجلّد ، وفي القرن العاشر ، جمع خليفة قرطبة 400 000 مجلد ، وخليفة القاهرة 1,6 مليون مجلد ، منها 6000 كتاب رياضيّات ، و 18000 كتاب فلسفة . وفي القرن الرابع عشر ، سيجمع ملك فرنسا شارل الخامس ، الحكيم أي العالِم ، 900 كتاب بصعوبة .

هذه العالمية المميّزة للأمبراطوريّة والفكر العربيّين ، اقترنت بفَرْسَنَة الخلافة ، التي انفلتت من أيدي البدو ، لتنطبع بطابع التقاليد الفارسية الأوتوقراطيّة والبيروقراطيّة : اللغة الفارسيّة ، الموشّاة الآن بكلماتٍ عربيّة

والمكتوبة بأحرفٍ عربيّة ، صارت إحدى اللغتين السائدتين في الامبراطوريّة ، وجعلت الثقافة والفنون الفارسيّة تسطع في أرجائها ، دون أن تتخلى هذه الفنون عن تقاليدها التشكيليّة والطبيعيّة . وفي الـوقت نفسه ، إن العـالم الإسلامي المنقسم بين المذاهب (الخوارج ، الشيعة ، الخ) منذ القرن السابع م. ، أخذ الآن ينقسم سياسيّاً ؛ فقد ظهرت عدّة سلالات مستقلة : في قرطبة منذ 756م. ، مع الأمويين الناحين ، وأيضاً في شمـال أفريقيـا ، وفارس وآسيـا الوسطى . وسوف يتخذ بعض هذه السلالات خلافاتٍ مستقلة . وفي كل مكان ستهيمن السلطة المدنية ـ أمراء ، سلاطين ـ على السلطة الدينيّة . في موازاة ذلك ، قام توازن جديد أو جرى السعي وراء توازن جديد بين الفلاّحين ومالكي العقارات والتجار ، الذين يحتاجون إلى سلطة قويّة ، والبدو الـذين يمكنهم تقديم هذه السلطة .

في آسيا الوسطى ، منذ القرن التاسع ، كان هؤلاء الأخيرون هم التّرك ، الذين تغلغلوا شيئاً فشيئاً في العالم الإسلامي ، بوصفهم « أهـل السّيف » ، لباحثين عن التحالف مع « أهل الشريعة » : هؤلاء سيعتنقون الإسلام لكنّهم سيحتفظون بلغتهم، وسوف ينشرونها لاحقاً في أوساط السكان الحَضَـريّين في آسيا الوسطى ، وأذربيجان والأناضول . على هذا النحو ، سيغدو الأتراك ، بعد العرب والفرس ، الأمة الإسلاميّة الثالثة . هناك عدّة أمصار ، ذات أهميّة استراتيجيّة غالباً ، ستقع بين أيديهم : فقد أنشأ الأتراك السلاجقة سلطنة الروم (أي البلاد « الروميّة ») في الأناضول ، حيث حاربـوا البيزنـطيين في القرن الحادي عشر ؛ وأنشأ آخرون في أفغانستان ، سلطنات غزنة (القرن العاشر) وجهـور (القرن الحادي عشر) .وتراجع الاسلام في جبهاتٍ أخرى : ضاعت صقلية في القرن الحادي عشر ، وبين القـرنين الثاني عشـر والثالث عشـر ، ضاعت تقريباً كل اسبانيا والبرتغال ، وأدّت الحملاتُ الصليبيّة إلى إنشاء دول افرنجيّة في المشرق (الحادي عشر ـ الثاني عشر م.) .

إن آخـر البـدو الـذين ظهـروا ، أخيـراً ، في السهـوب، هم مغـول جنكيزخان ، غير المسلمين ، الذين أنشأوا في مطلع القرن الثالث عشر ، وفي أقل من خمسين سنة ، أكبر امبراطورية عرفها العالم ، إذْ استولوا على الصين

وآسيا الوسطى ، وفارس ، وبلاد الرافدين ، والقوقاز وروسيا ، وبالتالي استوطنوا في قلب العالم الإسلامي . لكنَّ هذه الإمبراطورية انقسمت منذ نهاية القرن الثالث عشر إلى ممالك متحاربة : الصين (الخان الأكبر) ، روسيا - سيبيريا (العشيرة الذهبيّة) ، آسيا الوسطى (جاغاطاي) وفارس - بلاد الرافدين آغاخانات تبريز) . في القرن الرابع عشر ، فشل تيمورلنك ، المغولي التركي والمسلم ، في إعادة الوحدة المغوليّة انطلاقاً من آسيا الوسطى (سمرقند) .

3 . التوسّع وحدوده

لئنْ كانت الامبراطوريّة الإسلاميّة قد خرجت صغيرة حقاً ومجزأة ومزعزعة من قرون الصراع السبعة تلك التي تلت قرنَ توسعها الصاعق ، فإن الإسلام لم يتوقف ، مع ذلك ، عن انتشاره ، خارج المجال الأولي ، من طريق التفاعل الثقافي أكثر بكثير من انتشاره عن طريق الفتح . ففي الجنوب ، ما بين القرن الثالث عشر والرابع عشر ، صعد ببطءٍ وادي النيل وتوغّل في وقت مبكّر في السودان ، عبر الصحراء ، حيث أحيا ممالك مالي (الثالث عشر - الرابع عشر) وسونغاي (الرابع عشر - السادس عشر) وكانم - بورنو (العاشر - التاسع عشر) الخ . وفي الشرق ، بعدما توطّد الإسلام في الهند الوسطى (القرن الثالث عشر) انتقل عن طريق بورما (أراكان) إلى ماليزيا وأندونيسيا اللتين اعتنقتا الإسلام في أواخر القرن الخامس عشر . وفي الشمال ، أدّى اعتناقُ الأتراك للإسلام ، ثم التتر من العشيرة الذهبيّة ، إلى جعل الإسلام الدين السائد في آسيا الوسطى وسيبيريا وقسم كبير من روسيا ، حيث سيبدأ القياصرة ، في القرن الخامس عشر ، بطردهم منها . في الغرب ، أخيراً ، انفتحت الجبهة الهجوميّة الوحيدة . انطلاقاً من إمارة قريبة من القسطنطينيّة ، قام الأتراك العثمانيّون ، في القرن الرابع عشر ، بمحاصرة روما الثانية ، من خلال فتحهم بلاد الأناضول والبلقان ؛ وآل بهم الأمر إلى الاستيلاء عليها سنة 1453 ، وحلّوا هكذا محل الامبراطورية البيزنطيّة القديمة، ورايتها: الهلال.

مع فجر القرن السادس عشر ، بدأت المرحلة الثالثة من تاريخ العالم الإسلامي ، وفقاً لاستقطاب ثنائي جديد . فمن جهة ، الامبراطورية العثمانية

التي جدّدت ، انطلاقا من استنبول ، الميراث البيزنـطي بسرعـة ، وذلك من خلال غزوها في النصف الأول من القرن السادس عشر ، سورية وبلاد الرافدين والجزيرة العربية ومصر وليبيا وتونس والجزائـر ، وانطلاقهـا لمهاجمـة أوروبا بحيث لن يتوقف هجومها عند أبواب فيينا إلاّ في القرن السابع عشر . ومن جهة ثانية ، الامبراطورية الفارسيّة في ظل السلالة الصفويّة (1501 ـ 1732) التي جدّدت ، انطلاقاً من اصبهان ، عظمةَ فارس وجعلتها تنتقل نهائياً إلى التشيّع . أخيراً ، يمكن أن نضيف الامبراطورية المغوليّة ، المؤسسة في الهند ، سنة 1526 ، على أيدي المغول المستتركين والمسلمين ، على أنقاض سلطنات دلهي ؛ إنْ لم تكن هذه الامبراطورية الهندية ـ الإسلاميّة في واقعها هندية أكثر مما هي إسلاميّة . سوف تُعمِّر الامبراطوريّتان التركية والفـارسيّة حتى القـرن العشرين ؛ وسوف يحاول الأتراك والإيرانيون والمصريون (المنعتقون من النفوذ التركي) ، كلٌ منهم على طريقته ، أن يجدوا اعتباراً من القرن التاسع عشر ، طريقهم نحو النهضة القومية والحداثة .

صحيح أنَّ الإسـلام ، بعد القرن الهجري الأول ، أحرز تقدُّماً ، لكنّه يبدو كأنه أدخل بوجه خاص خمائر وأقليّات في حضارات أخرى : أوروبيّة ، زنجيّة ـ أفريقية ، صينية ، هندية ، ماليزيّة ، ليس دون أن يوسّع إلى حد كبير جداً ، مداره الخاص (دار الإسلام) الذي بقي في جوهره عربياً وإيرانياً . إنما الأتراك وحدهم الذين قدموا للاستيطان في آسيا الوسطى وأذربيجان وتركيا ، يظهرون كأنّهم اندمجوا حقاً في دار الإسلام . كذلك لا بد من الملاحظة أنّ الأمر يتعلق في هذا المجال بسكانٍ أكثر تتريكاً من كونهم خلفاء لغزاة . يضاف إلى ذلك أنّ الأمّة العربية الحالية مكوّنة من خلفاء شعوب مستعربة (مصريين ، بربر ، الخ) أكثر ممـا هي مكوَّنـة من سلالات فـاتحين قدمـوا من الجزيـرة العربيّة . ففي العالم العربي ـ الإسلامي ، كما في سواه ، طبعت المسارات التثاقفيّةُ جماهير البشر بطابعها : فقد احتاجت العربيّـةُ إلى قرونٍ لكي تحـل محل الآرامية والمصرية والبربريّة ، كما احتاج الإسلام إلى قرون ليحل محل المسيحية في سورية ومصر والمغرب وتركيا . ففي تعاقب وتدامج المؤثّرات ، استمرّ عددٌ معيّن من جماعات إثنيّة ـ لغوية أو إثنية ـ دينية ، شاهداً على التسامح

الذي أظهره المجتمع الإسلامي نحو « أهل الكتاب » ، والأقليّات (الذمّيين) المنتظمة في طوائف (ملل) : كالأقباط المسيحيّين في مصر الذين حافظوا على حياة اللغة المصرية القديمة طيلة قرون ، والقرى الإسلامية والمسيحية داخل لبنان التي ظلت تتكلّم الآراميّة حتى القرن العشرين ، والموارنة اللبنانيين والمسيحيين الفلسطينيين الروم أو الملكيين ، والآشوريين المسيحيين في العراق ، والجماعات غير المسيحيّة وغير الإسلاميّة ، كالمانديين واليزيديّين أو الدروز .

إن المدار الحضاري العربي ـ الإسلامي يتضمّن الأمم الإيرانية والأفغانية ، مثلما يتضمّن الإثنيّات الكردية والتركية والامازيغية (البربر) التي ليست هي عربيّة ولا في طريقها إلى الاستعراب بالضرورة . ويتضمّن أيضاً عدّة جماعات غير إسلامية عاشت أكثر من ثلاثة عشر قرناً في بيئة إسلاميّة . إن الجماعة الثقافيّة تستند ، في نظر الجميع ، إلى الإسلام والعروبة ، وإلى ماضٍ تاريخي ، مثلما تستند إلى إطار جغرافي مشترك ؛ لكنها تتركُ لكل كيانٍ إثني أو إثني ـ ديني ، شخصيتها وعاداتها الخاصة بها .

إن الإطار السياسي ، الموروث عن التاريخ المعاصر ، هو إطار دولة إيرانية محصّنة ، منذ 1979 ، وراء الأصوليّة الشيعيّة ، في مواجهة تفكك الأمة العربية وتوزّعها على أكثر من 20 دولة متوسطة أو صغيرة ، اختار كلٌّ منها سياسات داخلية وخارجية تناقضُ دعواتها الدوريّة إلى الوحدة العربيّة . تنتظم هذه الدول حول مدن كبرى ، بات عددٌ منها يتجاوز سكانه الملايين ـ طهران ، القاهرة ، الاسكندرية ، بغداد ـ وسوف يتجاوز ذلك عدد آخر من المدن قبل العام 2000 : كابول ، الجزائر ، الدار البيضاء ، دمشق ، الرياض ، الخ . إنه بلا شك عالم متعدّد الأقطاب . فتركيا ، من جانبها بعد العلمنة ، الحازمة والفعّالة ، الناجمة عن السياسة الكماليّة ما بين الحربين الأولى والثانية ، تبدو أنّها قد رست واندمجت في أوروبا بقوّة متعاظمة . هناك أمة وحيدة حديثة وإسلامية ، لا عربية ولا إيرانية ، على عتبة المدار العربي ـ الإسلامي ، هي الباكستان التي تبدو كأنّها آخذة في الانضمام إلى الكتلة الشرق أوسطيّة ، لكنّها لا تزال جزءاً لا يتجزأ من شبه القارة ، ومن الحضارة الهنديّة .

الفصل الخامس

المدارات الحضارية الأوروپية والغربية

I . أوروبـــا

1 . جـــذور الحضـارة الأوروپيّة

يرى پول ڤاليري[1] أنها « رأسُ القارة الآسيوية الصغير » ، إذْ أنّ أوروبّا تشكّل مداراً حضاريّاً خاصاً ، مثل شبه القارات الآسيوية الأخرى . فـأوروبا المنفتحة بشكل واسع على آسيا الوسطى ، تتميز بإطارٍ طبيعي متنوّع ، يمتّد مر حوض البحر المتوسط ، وهو حديقة مقسّمة ومُنوّرة ، إلى المجالات المحيطية ذات الأعماق العارية والغابات القاريّة الكثيفة ، التي تلفحها الريـاح الغربيّـة وترويها موجاتُ المطر الأطلسيّة . مُناخٌ قاسٍ جداً في الشتاء ؛ لكنّه معاكس ، محفِّز ، حيث يجري تنشيْط الحياة باستمرار من خلال التيارات الجويّة الآتية من الغرب . واجهة بحريّة ذات مناخات معتدلة يلطّفها الريح الأطلسي الشمالي (خليج ستريم) . جراب شبه قاريّ ، طرفُ العالم حيث تتلاقى ، كما في شبكة ، كل التيّارات البشريّة والثقافيّة في القارة الأوروپيّة الآسيويّة ؛ موجات متعـاقبة تضـع أحمالهـا وأثقـالهـا من البشـر والحيوان والحبـوب والتقنيّـات والمؤسسات والمعتقدات والقيم . أرضٌ ذات انقطاعات شتّى ، قابلة للإختراق من كل الجهات ؛ لكنهـا منعزلـة في وحداتٍ ذوات مشـاهد طبيعيـة مختلفة الألـوان : سهـل أوروپي شمـالي كبيـر في الغـابـة المتغضّنـة (الهـرسينيّـة Hercynienne) حـوض دانـوبي هـو مـوقـع متقـدم للسهـوب الأوروپيـة/

---

(1) P. Valéry, Varietés, I, P. 24.

الآسيوية ، برزخ فرنسي ، طاولة آيبريّة ، أراضٍ شاسعة رطبة من بوائر وحجارة ، جبال ـ ملاذات ، الخ . هذه الأماكن استخدمت ممرّاً ، وكذلك معبراً مما قبل التاريخ إلى التاريخ ، ولم تنقطع عن استقبال وتوطين واستدماج أولئك الذين كانوا يأتون من الشرق أو الجنوب مع علمهم ومخاوفهم وآمالهم .

سكّانها من عرق أبيض ، يتكلّمون حوالى أربعين لغة ، كلها هنديّة ـ أوروبيّة تقريباً ، ما عدا الباسكيّة ، آخر ما بقي من عنصر (State) هندي ـ أوروبي قديم ، ظهر أيضاً في القوقاز ، وبعض اللغات الأوراليّة ـ الالتيكيّة (الفنلندية ، الهنغاريّة ، التركيّة) التي جلبتها الغزوات الحديثة . إن هذه الوحدة اللغوية خلقت ، منذ التاريخ الأول ، قرابة ثقافيّة عميقة على مستوى السيمياء والأساطير والأشكال الاجتماعيّة . فقد حلّت محل سلالة عجيبة من ثقافات أصيلة ومجدّدة : الحضارة المجدلانيّة (الألف الخامس عشر ـ الألف الحادي عشر) في المجال الفرانكو ـ كانتبري ـ من لاسكو إلى التاميرا ـ التي أكملت العصر الپاليوليتي بازدهار للفن ، ليس فقط الفن الجداري (نقوش) ، بل أيضاً الفن التأثيثي (عظم منقوش) المنقول وغير المنقول (أول قرى في الهواء الطلق) ؛ الحضارة المزوليتيّة للقنّاصين ـ الصيّادين (maglemosiens) في أوروبا الشمالية (الألف الثامن ـ الألف السادس) الذين صنعوا من الحجارة البركانية ، السّهام ، الفخّ ، الخ ؛ الحضارة الپاليوليتية الإضافيّة الدانوبية في الألف السابع مع المناطق التي وُلدت فيها العمارية الطقسيّة والنحت الفنيّ التذكاري ؛ الحضارة الميغاليتيّة في الواجهة المحيطيّة ، حيث ظهرت مع الدولمن (Dolmens) في بداية الألف الخامس ، « أقدم الأنصاب الحجرية التذكارية في العالم » (C. Renfrew) .

لا بد من توضيح تكوّن المجمّع الإثني ـ اللغويّ الهندي ـ الأوروبي في سهوب أوكرانيا وجنوب روسيا (حضارات الكورغانيّين : من الألف الخامس إلى الألف الثالث) . يبدو أنّ هذه البؤرة قد شعّت في اتجاه أوروبا الغربية ، في الألف الثالث ، من خلال انتشار الشعوب الرّعاة ، المزوّدة بفأس قتال وبصناعة خزفيّة مجدولة ؛ ثم في الألف الثاني ، من خلال حضارات حقول المرامد والجثوات (tumulus) في العصر البرونزي . ولكنّ ، بينما كان الألف

الثاني مميّزاً في الشرق الأوسط بظهور الشعوب الهندية - الأوروبيّة التاريخية التي أدخلت الحصان وعربة القتال ـ الحثّيين ، الكاسّيين ، الهكسوس (ذوي الطابع الهندي ـ الأوروبي) الحوريّين (Mitaniens)، الهنود ـ الإيرانيّين ، الفلسطينيّين (« شعوب البحر ») الخ ، كانت موجات مماثلة تتغلغل في مختلف أجزاء أوروبا : الآشيّون ، الإيجيّون ، الدوريّون ، التراسيّون ، الإليريّون ، الايتاليّون ، السلتيّون ، الخ . ومن هذه الموجات ولدت في الألف الثاني الحضارة الموسينيّة التي حلّت محل حضارة كريت ، ثم وُلدت في الألف الأول الحضارات اليونانيّة والرومانية « الكلاسيكيّة » في الجنوب ، والحضارات الهلستاتيّة واللاتانيّة (العصر الحديدي الأول والثاني) في وسط أوروبا ، حيثُ سيسطعُ نجمُ السلتيّين .

سوف يمتدّ تكوّن وتموضع الأعراق الأوروبيّة ، من الشمال إلى الشرق ، مع « حركات الشعوب » الكبرى (Völkerwanderungen)، لا سيما الجرمانيّة والسلافيّة في الألف الميلادي الأول ، وتفكّك المجاميع الامبراطوريّة الكبرى ، اللاتينيّة والبيزنطيّة في الجنوب .

2 . المرتكزات التقنولوجية والروحيّة

في الألف الخامس ، كانت الأراضي الأوروبيّة محفوفة بصخور الميغاليث (Mégalithes) ، الأثقل بكثير من حجارة الأهرامات المصريّة ، قبل أن ترتفع هذه الأهرامات بعشرين قرناً . وبعد خيوبس Khéops بألف سنة نحو 2500 ق . م . ، وفي مدى أكثر من خمسة قرون من التعديلات ، جرى بناء المرصد الطقسي في ستونهنج ، على الأرض الانكليزية ، بحجارة زنتها 50 طناً، بينما لا تزن حجارةُ الهرم الأكبر أكثر من 2,5 طن . ففي الوقت الذي كان الاغريقيّون والرومان يستعملون المحراث الخشبي ، كان الغاليّون قد صنعوا المحراث الحديد ، المستند إلى دولابين . وبينما كان الأوّلون قد مكثوا في عصر استعمال المنجل البرونزي ، كان الغاليّون يستعملون المنجل الكبير الذي يُقبض عليه بكلتا اليدين ، وحتى أنّهم كانوا قد ابتكروا حصّادة بدواليب ؛ وكانوا قد اخترعوا صناعة البراميل ، وصاروا معلّمين في فن نجارة العربات وفي

فن النجارة عموماً ، وفي الحدادة : كانت سيوفهم الحديد أصلب من السيوف الرومانيّة . لكنّ حضارة الخشب والحديد هذه لم تكن تستعين أبداً بالمعماريّين ، وكانت تترك قليلاً من الأنقاض ؛ كما أنّ علم الكهنة الغاليّين (druides) ، أبناء عم البراهمة ، لم يترك أي أثر ، ربما لأنّه لم يُكتب على ما يبدو . إن البحث عن التجديد التقنولوجي سوف يميّز أوروبا ، التي لن تتوقّف عن إبداع تقنيّاتٍ جديدة ، ولا عن تبني ، وتكييف وتعميم استعمال مُكتشفات الآخرين ، سواءً ركابُ أهل السُّهوب أو قلادة الكتف الصينيّة بلا شك ، والطاحونة الهوائيّة الإيرانيّة ؛ وبالطبع البوصلة ، الورق ، الطباعة ، وبارود المدفع ، وكلها ابتكارات صينيّة مشهورة .

وبالتالي ، شهدت القرون الوسيطة ، إلى جانب المآثر المعماريّة للفن الفرنسيّ (Opus francigenum) ، المشهور لاحقاً بالفن « الغوطي » ، تكاثر وتدامج التقنيّات الجديدة ، واتساع التشكيلة الزراعيّة ، وزيادة السكّان ، والتطور التدرّجي للحياة . وقد ترافق تراكمُ الطفرات العمليّة ، مع استعداد للبحث العلمي ، ونزوع إلى العقلنة والتعميم والتنظير ، يفصل ، مثلاً ، أوروبا عن الصين :

« . . . لم تتمكّن الصين من الانتقال من التقنولوجيا إلى العلم . إنّ المكتشفات العمليّة الجميلة في موضوع الكيمياء لم تصبّ على نظرية علميّة إجماليّة » (P. Gourou, 1982, P. 151) . مع الفكر العلمي وازدهار الفلسفة وانفصالها عن الدين : نجدُنا أمام المصادر اليونانيّة للفكر الغربيّ « . . . في بداية القرن السادس ولدت فلسفة للطبيعة في الحواضر اليونانية بآسيا الوسطى . ولقد جرى الاحتفاءُ في نظريّات أولئك الفيزيائيّين الإيونيّين الأوائل ، بحلول الفكر العقلاني كما فهمه الغرب (. . .) أكثر مما كان ينبغي على الفلاسفة الميليزيّين في الصين أنْ يقطعوا مع المعتقدات الدينية التقليديّة التي عارضوها في عدّة نقاط وبكيفية واعية » (J. P. Vernant, 1981, P. 99) . « لم تقع في الصين أزمة حادّة ولا مجابهة بين شعب وارستقراطيّة يمكنها أنْ تؤدي إلى تبدل جذري في التكوين السياسي (الدستور) وإلى إعادة نظر في كل الماضي ، بل حدث تطورٌ سمح ، على الرغم من ضخامته ومن أشكال التقدّم

نحو المعقول ، بكثير من التكيّفات والمناسبات . لم يحدث شيء مماثل في الصين على صعيد هذا الفصل ما بين عالم البشر وعالم الآلهة ، الـذي كان المسيرة الأولى الضرورية لولادة العقل اليوني » (Jacques Gernet, in J. P. Vernant, 1981, P. 90) .

والمقارنة مماثلة بالنسبة إلى الهند . مثال ذلك أنّ جواهر لال نهـرو ، رئيس حكومة الهند المستقلّة ، كان يلاحظ موقفَ مواطنيه تجاه الساعات التي جلبها معهم البرتغاليّون في القرن السادس عشر :

« جرى النُظر إليها كأنها من كماليّات الأغنياء ، إذْ كان الشعب العادي يكتفي بساعالت شمسيّة ، رمليّة وسواها . لم تجرِ أيّة محاولة لفهم كيفية صنع هذه الساعات النبّاضة أو لتصنيعها في الهند . . . إن هذا الغياب لأي مَيْلٍ نحو الميكانيك هو أمر ملحوظ ، مع العلم أن هناك حرفيّين وعمالاً ماهرين جداً في الهند (. . .) فبينما كانت آسيا قد صارت نائمة ، مُنهكة من جرّاء الجهود التي بذلتها في المـاضي ، كانت أوروبـا المتأخـرة في عدّة جـوانب ، على عتبة متغيرات هائلة . كان هناك فكرٌ جديـد ، خميرة جديدة ، يجـري صنعهما ، ويرسلان المغامرين بـاسمهما إلى المحيـطات ويقلبان عقـل المفكّرين ليهتّم باتجاهات جديدة (. . .) من المؤكد أن الصين كانت آنذاك ، وبعد ذلك ، أكثر تحضّراً ، وكان شعبها ينعم بحياةٍ أرقى من حياةِ أي شعب أوروبي . وكما تشير كل المظاهر ، كانت الهند تمثّل أيضاً ليس مشهدَ بلاطٍ بهيّ ، بل مشهد مهنٍ وتجارة وصناعات يدويّة وحرفيّة مزدهرة . وكانت تبدو البلاد الأوروبيّة لأي زائرٍ هندي كأنها متأخرة وحتى مُحبطة من جوانب كثيرة . ومع ذلك فإنّ النوعيّة الديناميكيّة التي أمست واضحة في أوروبا ، كانت منعدمة تماماً في الهنـد » (The Discovery of India, Bombay, Asia Publishing House, 1961, P. 275-277) .

انـطلاقاً من إحســاس عينيّ جداً قـائم على ملاحـظة الأشيـاء ورصـد خواصها ، اتّجه الفكر الأوروبي نحو حل مسائل عمليّة ، تقنيّة : هذا ما برهن عليـه الفلاّحـونِ والحرفيّـون ، منذ مـا قبل التـاريخ ، وعلى امتـداد العصـر الوسيط ، لتحسين المصير المشترك . ومن هناك جرى الانتقال إلى إرادة اكتناه

عام ، متناسق ، منطقي ، للعالم ؛ وإلى فكر علمي حقيقي ، كان لا يزال تائهاً في الجامعات الوسيطة ، لكنّه كان مدفوعاً بمنجزات الفكر اليوناني القادم إليه عبر العالم الفارسي ، العربي واليهودي ـ الإسباني ، وبالطبع ، ستقوم إرادة الفهم والتفسير هذه ، مثلها مثل كل الابتكارات ، بوضع التقاليد والسلطات والحكومات والمصالح القائمة موضع الشّك .

وسوف يختَصُّ الأوروبيُّون برغبة دفع هذا الرفض المتواصل حتى نهاياته المنطقيّة : حتى نفي السلطة المعقّمة للمؤسسات ـ من نقابات مهنيّة ، وكنيسة ومدرسة ، ودولة ، الخ ـ العاجزة عن إجازة التطور نحو حياة أفضل . فبعد الفلّاحين ، سيرى المثقفّون والبورجوازيون والعمّال ارتفاع عدد متزايد من بين صفوفهم للأصوات التي ولّدت تيارات كبرى تطلبُ المزيد من الحريّة : عاميّات (Communes) ضد الإقطاعيّين ، فلسفة إسميّة ضد الفكر المدرسيّ ، نظرية توفيقيّة في مواجهة البابويّة ، إصلاح في مواجهة الكنيسة ، ديمقراطية في مواجهة امتيازات الدم ، إشتراكية في مواجهة امتياز المال ، الخ . لكنّ الأمر لا يتعلّق هنا بمجرّد حركات جماعيّة كتلك التي شهدتها حضارات أخرى ، ذات التاريخ الذي تتخلّله انتفاضات فلّاحية ، اهتياجات شعبيّة ، ثورات تمرّد . بل المقصود أيضاً إعلان ثابت ومستديم لحقوق الفرد في مواجهة الجماعة ، في مواجهة المجتمع وإعلان حق التعبير عن فكره الخاص ، عن اعتراضه وعن التمسك بمعارضته ، حق الإنسان في أن يقول لا ، وأن يختلف عن سواه ، وأن يرفض الإجماع المظهري وأن يعارض بقيمة التعددية وبعدم الحط من قيمة الشخص البشري ، أيّ نموذج يفرضه الماضي[1] .

إن هذا التحرير للفرد المطالب بحقّه في التمحيص الحر ، في التفكير الحر ، في امتلاك ذاته بحريّة ، هو الذي سيولّد في أوروبا هذه الطاقة الهائلة

---

(1) « ما هي أوروبا ؟ إنها فكرة لا تكتفي أبداً بذاتها . فهي لا ترحم نفسها ولا تتوانى قطّ عن متابعة أمرين : أحدهما السعي وراء السعادة ، وثانيهما البحث عن الحقيقة ، وهو أمرٌ أكثر ضرورةً لها وأكثر قيمة من الأول » .

(Paul Hazard, La Crise de la conscience européenne, 1680- 1715, Fayard, 1961).

التي ستمطرُ الأطرَ التراثية وتغرقها ، وتجرّ الأوروبيّين إلى حركة دائمة من الإبداع والخلق ، تجعل مجتمعهم يتطوّر بلا انقطاع . ثورات متعاقبة ، يدخل بعضها في بعض ، وتحطّم نظام الأشياء القديم : ثورة في علم الزراعة وفي الزراعة ، ثورة علمية ، تقنولوجية وصناعيّة ، ثورة صحية وسكّانية ، سياسية واجتماعية . إنّها في الغالب ثورات ذوات جذور فكريّة ، وفي المقام الأول تشتمل سلسلة شهدائها على شهداء حريّة الفكر : جان هوز ، توماس مور ، ميشال سرفي ، جيوردانو برونو ، غاليله ، الخ . إنّ فضولهم الفكري وتشهيّاتهم الماديّة ، وحتى رغبتهم العقليّة ، ستدفعهم بعيداً وبسرعة كبيرة عبر العالم لكي يعرفوه ويستثمروه ويفرضوا عليه عقيدتهم . العقيدة المسيحيّة المستعارة من الشرق التي بقيت متحجّرة في كنائس مونوفيزيّة أو نسطوريّة جامدة، والتي لم يتوان الأوروبيّون عن نقد مذاهبها لنقضها أو إغنائها ببدائع منطقيّة ؛ إنّها العقيدة التي اتخذوها أداةً إيديولوجيّة لغزو العالم .

3 . الهيمنة العالميّة

ما بين 1408 و 1433 ، قامت امبراطوريّة المينغيّين ، التي حرّرت الصين من المغول ، بشنّ ست حملات على متنِ ستين مركباً كبيراً ، تحمل 20 إلى 30 000 رجل ، بقيادة أمير البحر (أميرال) المسلم **زنغهي** عبر المحيط الهندي ، زارت هذه الأساطيل سواحل الهند وسري لانكا والجزيرة العربية وافريقيا الشرقيّة . ثم بعد وفاة زنغهي توقفت الحملات ، ولم تعد الصين تهتم بهذه المناطق أبداً ، ولا بالمضي قُدُماً . يبدو أن الفضول قد تشبّع ، وأن المراكب لم تعد تُبحر إلاّ بدفع الرياح ، فلم تخرج من مدار الرياح الموسميّة .

في الفترة ذاتها تماماً ، كان الأمير البرتغالي هنري « الملاّح » يجمع في رأس ساغري ، طواقم من العلماء والمسافرين والبحّارة ، وقام ما بين 1418 و 1460 باستكشاف مبرمج للسواحل الافريقية الغربية وصولاً إلى سيراليون . بعد وفاته ، تواصلت الحملاتُ بشكل منسّق : فقبل نهاية القرن ، سيتم بلوغُ الهند ، عن طريق الرأس ، وعن طريق السويس أيضاً ، وفي سنة 1522 أنجز

أسطول ماجلان أول جولة حول العالم . ففي مدى قرن تمّ التعرّف إلى القارات . إنها روحيّة الاستكشاف ، وكذلك روحية الحملات الصليبيّة والاغتناء والغزو : لقد تضافرت تلك الروحيّات كلّها . وإن المراكب لم تصل أبداً إلى الغرب ؛ لكنّ قوافلها جابت كلّ البحار . لماذا ؟ لا يمكن حصر الجواب بالتقنيّات الملاحيّة وحدها . لماذا ، إذن؟ للسبب عينه الذي جعل الامبراطور شارلكان يرفع آنذاك شعار : « لا شيء وراء الأفق » .

اعتباراً من القرن السادس عشر ، انطلق الأوروبيّون، وهم في عزّ تألقهم ، لغزو العالم ليس فكرياً وحسب ، بل تجارياً وروحيّاً أيضاً ، وسياسيّاً عمّا قريب . إن غزو الإسبانيّين الصاعق للمكسيك (1519 ـ 1521) وللبيرو (1531 ـ 1534) ، تلاه الإستيلاءُ على كل البلاد التي لا تقوم فوقها دولة معترف بها ـ جزر ومناطق ساحليّة ـ من جانب الإسبانيّين والبرتغاليّين والإنكليز والهولنديّين الذين استوطنوا فيها ، رويداً رويداً ، وأنشأوا مستوطنات ومزارع ، ثم مستعمرات (القرن السابع عشر) في أميركا وأفريقيا الجنوبية ، وفي جزر بحار الجنوب الخ . أخيراً ، طاول التغلغلُ بلاد الحضارة المدنيّة : مكاتب ، مشاغل ، ومعامل ، معاهدات مرفأية وتجارية ، بعثات دينيّة تنشر النفوذ الأوروبي في آسيا ؛ ذلك التغلغل الذي سيغدو غزوا للهند في القرن الثامن عشر . ومع القرن التاسع سيتحوّل ذلك إلى تقاسم كامل للعالم غير الأوروبي ، الذي استحالت كل أراضيه إلى مستعمرات ، وآخرُ دوله إلى نظام تقسيمي شبه استعماري ، نظام مناطق النفوذ (الصين ، تركيا ، فارس ، سيام) .

إلاّ أن هذا الامتلاك للعالم بالذات أدّى إلى تنافس بين الأوروبيّين نجمت عنه الحربان العالميتان اللتان قامتا لأجل تصفية النزاعات الداخليّة ، وجعلتا الأوروبيّين المنهوكين يتخلون عن الهيمنة الإستعماريّة ، ويسلّمون في آخر الأمر بتصفية الاستعمار في آسيا الجنوبية وافريقيا والجزر ، ويفكّرون بالاتحاد بدلاً من المجابهة .

4 . من الامبراطورية إلى الوحدة

لم يولد مفهوم أوروبا ككيان سياسي من الامبراطوريّة الرومانية الغربية

العارضة (395 ـ 455)، ولا من المنازعات بين بابا روما وبطريرك القسطنطينية اللذين تقاسما تنصير شعوب الشمال. بل ظهر مع شارلمان « والد أوروبا » (أنجيلبر ، 799) ، الذي سيطلق معاصروه إسم أوروبا على مجاله الامبراطوري[1]، بعد ذلك بقرنين لم يكن لمؤسسي « الأمبراطوريّة الرومانية المقدسة للأمة الجرمانيّة » الطموح ذاته ولا الهالة نفسها . فعلى الدوام ، سيتعيّن على الأمبراطورية أن تؤكد ذاتها في وجه روما (صراع الأكليروس والامبراطورية) وفي مواجهة الأمم التي تكوّنت ، على خطاها ، في ممالك : فرنسا ، انجلترا ، الدانيمارك ، پولونيا ، بوهيميا ، هنغاريا ، الخ ، وحتى في مواجهة إيطاليا المدن ـ الدول . لن تستمر الامبراطورية ، كأسطورة تحظى ببعض الإيمان ، إلاّ في ألمانيا[2] .

في آخر المطاف ، ربما يعود إلى قوّة الأوروبيّين أمرُ اقتدارهم على توطيد دولهم وأممهم ولغاتهم في مواجهة الأمبراطورية وفي مواجهة روما أيضاً ؛ وعلى تكوّنهم في نطاق التنوّع وتوازن شتى المصادر السلطوية ؛ والبرهان على أنَّ رغبة الهيمنة على أوروبا إنّما تعني تشكيل إجماعٍ ضد المُهيمن ، سواء دُعي شارلكان، الملك ـ الشمس ، ناپوليون أو هتلر . فأوروبا لا يمكنها أن تتقبل تمثيلها بأمةٍ واحدة . فهي تملك مناطق قوّتها ، ومحاور دورانها الكبرى ، وعواصمها التجاريّة ـ البندقيّة ، جنوى ، بُروج ، آنفر ، آمستردام ، لندن ـ أو الفكريّة ـ پاريس ، فلورنسا ، براغ ، ڤيينا ، برلين ـ لكنّها لا تستطيع أن تكون ذات مركز سياسي مماثل . لم يعد من الممكن أن تتمّ وحدتها بقوّة الهيمنة ، بل بقوّة المساواة . هذه هي أمثولة تلك الأزمات الحقيقيّة الداخليّة التي تمثّلت في نزاعات كثيرة أحرقت طاقتها الحيويّة ، وبلغت ذروتها في حربين عالميتين ، بعد حروب أهلية أوروبيّة جمّة .

لقد انطلق مسارُ الوحدة الأوروبيّة بقوّة وجديّة وبشكل أساسي وغير قابل

(1) Denis de Rougemont, 28 siècles d'Europe, Paris, Payot, 1961.

(2) لكنّ الحلم الامبراطوري سيدفع ناپوليون إلى أن يعيّن إبنه « ملكاً على روما » بعدما جعل نفسه امبراطوراً على الفرنسيّين ، متخوّفاً من إعلان نفسه امبراطوراً على الغرب ؛ وسيدفع ملك انكلترا وايطاليا للبحث عن تاجهم الامبراطوري في الهند والحبشة .

للتراجع ، أكبر وأقوى من أية وحدة قارية أو شبه قاريّة أخرى ، يجري التحضيرُ لها في أي مكان آخر : الوحدة العربيّة ، الأفريقيّة ، الأميركيّة ، الأندينية ، الخ . لقد انطلق الأوروبيّون الغربيّون من حل المسائل الاقتصاديّة وهم يعلمون أنهم قد صاروا ، اليوم ، كتلة اقتصادية معادلة للولايات المتحدة من حيث انتاجها وقدرتها الاقتصادية ، ومتفوّقة عليها من حيث نشاطها التجاري[1] . وإنّ احتمال جعلها مجدّداً حقلاً للصراع بين الآخرين ، يحفّزها على البحث عن تكوين كتلة سياسية مستقلة .

إن أوروبا الستة (1952 : ألمانيا الغربية ، فرنسا ، ايطاليا ، بلجيكا ، هولندا لكسمبورغ) غدت أوروبا التسعة (مع المملكة المتحدة ، ايرلندا ، والدانيمارك سنة 1972) ، والعشرة (مع اليونان سنة 1981) والإثنتي عشرة (مع اسبانيا والبرتغال سنة 1986) . تدور حولها ثلاث بلدان أخرى اسكندناڤية (السويد ، النرويج ، ايسلندا) وثلاث بلدان محايدة (فنلندا ، النمسا ، سويسرا) ، وثلاث بلدان متوسطيّة هامشيّة (تركيا ، قبرص ، مالطا). أي دون أن تحسب الدول الصُّغرى وأشباه الدول (اندرو ، موناكو ، ليشتنشتاين، سان ماران ، الڤاتيكان ، جبل طارق ، جرسي ، غرنيزي ، مان وفيرويه Féroé) ولا يوغسلافيا ذات التوجّه الاشتراكي، ما يُعادل إحدى وعشرين أمة ـ دولة[2] تشكّل على الصعيد الاجتماعي الثقافي مجمّعاً بشريّاً واحداً ، مع نواةٍ مندمجة ، السوق الأوروبيّة التي تكوّنُ مجالاً اقتصاديّاً وسياسيّاً مشتركاً (البرلمان الأوروبي المنتخب بالاقتراع العام 1984 ، قرار واحد سنة 1987 ، سوق كبيرة سنة 1992) يزداد تناسقه وانتظامه بقوّة مع العملة الحسابية الثانية والعملة الاحتياطيّة (L'écu) بعد الدولار . والتي أخذت تنتهج سياسة عالميّة لا سيما تجاه العالم الثالث: معاهدات لومي (1975 ، 1979 ، 1984) التي

---

(1) مع 12٪ من مساحة العالم و6,2 من سكانه ، تمثل أوروبا العشرة ثلث الصادرات العالمية تقريباً .

(2) عدد مطابق لعدد أعضاء مجلس أوروبا (جمعيّة ستراسبورغ) تقريباً ، باستثناء فنلندا غير الممثلة فيه، والتي حلّت محلها ليشتنشتاين (Liechtenstein) .

تربط على قاعدة المساواة بين السوق الأوروبيّة وبلدان أفريقيا والكاريبي والپاسيفيكي (A.C.P.) البالغ عددها 66 سنة 1985 .

إن أحداث 1989 قرعت أجراس العودة في كل المجموعة الأوروبيّة ، عودة البلدان الثمانية الدائرة في فلك الاتحاد السوڤياتي وأيضاً عودة الجمهوريات السوڤياتية . وهي عودة سيقوم كل بلد بتحقيقها بسرعته الخاصة ووفقاً لقدراته على استرجاع سيادته وترميم الديمقراطية ومواجهة اقتصاده المزعزع . فصار بناء أوروپا سياسية واسعة (كونفدرالية؟) راهناً بقدر ما صار مطلوباً أن يعاد البناء المشترك للمجال الواسع ، المقسم بشكل مصطنع ، وصار ضرورياً أن يعاد بناء عالم ثقافي واحد . لكن عودة أوروپا هذه إلى نفسها لا يمكن تحقيقه دون الاعتماد على نواتها المركزية ، الآخذة في التوطد منذ أكثر من 30 سنة : السوق المشتركة ، نموذج وقطب قارة مستعادة .

II . أميركا الشمالية

قبل كل شيء ، تبدو أميركا الشماليّة امتداداً لأوروپا . ففي الارتفاعات ذاتها نجد بشكل محسوس نفس طبقات المناخات والمناطق النباتيّة : غابات صنوبريّة أو وَريقة ، سهول عشبيّة كبرى ، وهامش مداري استوائي : الهامش المتوسطي غرباً لكنّه من الطراز « الصيني » شرقاً (هذا هو الفارق الوحيد عن أوروپا) . هذا المجال مأهولاً اليوم بـ 88٪ من المتحدّرين من أصل أوروبي ، ممن أنشأوا الدولتين الحاليتين : الولايات المتحدة وكندا. والـ 12٪ الباقية تضمّ بشكل إساسي الأفرو أميركيين (5 ,10٪) والآسيويين (1٪) والهنود الأميركيين (5 ,0٪) ، المتجانسين بأكثريّتهم مع لغة الأغلبية وديانتها أو طريقة حياتها، عندما لا يكونون متجانسين من جرّاء تهجين عميق وهم كلّهم آخذون في انتشار أكثر فأكثر في كل المجال الاميركي الشمالي . والأغلبية ذاتها ، الآتية من مشارب أوروپية بالغة التنوّع ، متجانسة ثقافياً ويعمق مع العنصر الانجلو- سكسوني المهيمن ، من خلال مسار « المصهر » (Melting- Pot) ، الذي أفسح ، مع ذلك ، في المجال أمام استمرار عدّة جزر إثنيّة ، مقاومة

ومتمركزة نسبياً ، يجب أن نذكر في مقدّمتها الكويك ، التي أنقذتها ثنائية كندا الأساسيّة (« شعباها المؤسّسان ») و «المتحدّرين من أصل اسباني » في الولايات المتحدة ، وهم أقلية حديثة وشديدة الحيويّة ، تغذّت مجدّداً من الهجرة الأميركيّة ـ اللاتينيّة .

إنّ أميركا الشماليّة ، إذْ استوعبت القسم الأكبر من فائض سكان أوروبا في القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين ، إنما كانت تجسّد بمقدار كبير العناصر الأكثر تمييزاً للحضارة الأوروبيّة : أناسٌ ينتقدون مجتمعهم إلى حد الانشقاق عنه (Dissenter بالانكليزية) ، بشر متعطشون لمجالات أرحب ، لحياة أكثر حريّة ، بشرٌ مضطهَدون ، مستضعفون ، يرفضون القهر والعبوديّات والبؤس في العالم القديم . إن هذا الظهور للمجتمع الأوروبي قاد الأميركيين ليكونوا على رأس الحركات التحريريّة : فالولايات المتحدة قامت على فكرة التمرّد ، الثورة ، وكانت أول من نادى بحقوق الإنسان وأعلنت أول دستور لديمقراطية كبرى ، وخاضت « حربها الأهليّة » لتحرير العبيد ، وعاشت الحركة النقابيّة الأكثر كفاحاً، على الرّغم من أعنف أشكال القمع ، الخ . وبموازاة ذلك، انطلقت رأسماليّتها قُدُماً على طريق التصنيع وضخامة المباني، وتمركز الشركات وسلطة الاحتكارات . إن اتساع أراضيها وتنوّعها وضخامة عدد سكانها وفّر الشّروط لقيام سوق أوسع وأنشط من أسواق أوروبا . وبلغ الإنتاجُ السلسليّ ومكننة الزراعة ونماءُ التجمّعات التي صارت مدناً ثم مدناً ضخمة جداً ، أحجاماً كان من الصعب جداً التفكير فيها في العالم القديم المنقسم إلى اقتصاداتٍ متنازعة ومنعزلة : كانت أميركا تدفع النزعات الأوروبية إلى ذروتها .

لكنّ أميركا الشماليّة المنشغلة كليّاً بتوسعها الداخلي الخاص ، والمنطوية على نفسها ، كانت تسيء النظر إلى بقية العالم . فقد ظلّت الولايات المتحدة منقسمة بين انعزالية طبيعية ، اقتصاديّة وسياسيّة في آن ، وبين مذهب تدخّلي متقطّع ، قاداها إلى أنْ تجعل الأميركيّتين مجالها المميّز (مذهب مونرو و « سياسة العصا الغليظة » التي انتهجها ت . روزفلت) ، ثم قاداها إلى

التدخل في وقت متأخر ، ولكن بشكل حاسم ، في الحربين العالميّتين ، وأخيراً قاداها إلى الاعتقاد بأنها مكلّفة بمهمة الأمن في العالم بأسره ، لكي تنتقل إلى الامبرياليّة الكونيّة في وقت كان الأوروبيّون يتخلّون عن هذا الطموح . طليعة سياسية ، اقتصادية وفكرية ، في كثير من الجوانب ، لأوروبا التي يربطها بها تفاعل مستمر بين تيّارات بشريّة ـ جماهيرية أو نخبويّة ـ ، هكذا دخلت أميركا الشمالية مع أوروبا في مدار حضاري أطلسي واحد ، رأت نفسها أنّها تمثل « نصفه الكرويّ الغربي » .

III . أميركا اللاتينية والكاريبي

هناك تشابهات بين أميركا الوسطى والجنوبية وأميركا الشمالية كافية لاعتبارها كلها بمثابة امتدادات لأوروبا على الصعيد البشري . فالهجرة الكثيفة نفسها للأوروبيّين وفّرت الأطر لمجتمعات قائمة على النموذج الغربي . لكنّ بعض العناصر جعلت هذا المجمّع يتمايز عن أوروبا أكثر . إن الإطار الطبيعي مختلف : فهو جوهريّاً إطار مداري استوائي ، ما عدا الطرف الجنوبي ، ويتكوّن من مجاميع بيوجغرافية (Biomes) مختلفة تماماً : غابة استوائية ، أشجار السافانا ، سفوح عالية معتدلة في المنطقة الحارّة ، الخ . والتكوين البشري ليس في مجمله أوروبيّاً : فقد بقي السكان الهنود الأميركيّون أكثريّة في المناطق المأهولة الأولى ، السفوح والهضاب ؛ والسكّان ذوو الأصل الافريقي منتشرون في كثير من أجزاء الكاريبي . بكلام آخر نقول : إنهم خليط آفرو-آسيوي ـ أوروبي . أخيراً ، إن الإزدهار ، قبل وصول الأوروبيّين ، لحضارات مدنيّة متطورة جداً ، جعل الثقافة تؤكّد نفسها في الغالب كثقافة مختلطة : ثقافة هندية ـ أميركيّة بقدر ما هي أميركيّة لاتينيّة .

هناك عدّة تقاسيم تفرض نفسها . أولاً حسب اللغة الثقافيّة السائدة : أميركا الناطقة بالإسبانيّة ، البرازيل الناطقة بالبرتغالية (lusophone) ، الكاريبي الناطق بالفرنسية والانكليزية والهولندية . وفي داخل هذه التقاسيم الكبرى ، هناك التباين بين البلدان ذات الهيمنة الهندية ـ الأميركية ـ غواتيمالا ،

البيرو ، بوليفيا ، الباراغواي - والبلدان ذات السكان البيض حصراً - كوستاريكا - التشيلي ، الأرجنتين ، الأوروغواي - ، والبلدان الخلاسية تماماً أي هنديّة - أوروبيّة - كوبا ، البرازيل الخ ، وهو تباين قليل الدلالة ، لأن مجمل أميركا اللاتينية والكاريبي يعيش في خلاسية مزدوجة ، تهجين الأعراق وتهجين الثقافات . فالهنود الأميركيّون « الحقيقيّون » أي أولئك الذين يتكلّمون لغتهم ويعيشون في متحد إثني ليسوا سوى أقل من 10٪ من مجمل السكان ؛ ولكنّ الخلفيّة هنديّة ، باستثناء « المخروط الجنوبي » ، الأبيض ، وفي الأراضي الأفرو - أميركيّة ، هي خلفيّة غالبة من المكسيك إلى الأنديز . وبالتالي ، إنّ اللاتينيين أو الهنود - الأميركيّين هم سلالياً هنود أميركيّون أكثر منهم أوروبيّين ، ولكنّهم أوروبيّون أكثر على الصعيد الثقافي .

إن إعادة تقويم العنصر السلالي والثقافي الأميركي - الهندي هو رمزُ تعلّق الهنود الأميركيين بجذورهم . كما أنّه يشهد على محاولة ترميميّة بإزاء أكبر وأفظع عمليّات التصفيّة العرقية التي استطاعت البشرية أن تعاني منها . فالتحطيم الجذري للحضارات الأزتيكية والمايانيّة والإنكية كان في الواقع مشروعاً مبرمجاً لإبادة ثقافة شعوب بكاملها ، لكي يُفرض عليها ، عنوةً ، دينُ الغزاة وعاداتهم . مثال ذلك أن المجوهرات الأزتيكية جرى تذويبها بكاملها ، لنقل أطنان السبائك إلى إسبانيا[1] . ولم يسلم سوى قدر ضئيل من المجوهرات لكي يُعرض فن « الوثنيّين » على ملك إسبانيا . وقد أصابَ اليأسُ صانعي المجوهرات في اشبيلية ، الذين غيّروها ، ولم يستطيعوا أن يصنعوا مثلها . وكان ألبرشت دورير قد أعلن بشأنها « لم أر في حياتي شيئاً أفرح قلبي مثل هذه الأشياء » . وقام المفتّشون والمطارنة بإحراق كل ما وجدوا من آداب أو مؤلفات علميّة مايانيّة ، بعجرفة وإصرار ، على الرغم من بكاء نخبة هذه الشعب وتوسّلاتها ، الخ[2] .

(1) الأمر الذي جعل موكتزوما ، آخر امبراطور ازتيكي ، يسجّل هذه الملاحظة : « يفترض بالمسيحيين أنْ يكونوا مُصابين بمرضٍ عجيب لا يمكن علاجُه إلاّ بالذّهب » .

(2) من المفيد التذكير أن الفاندالية المسيحية ضد الثقافات الأخرى كانت قد تجلّت من قبل إزاء

إن حضارة تفرض نفسها بأعمالٍ كهذه سيرفُضها الخَلَفُ حكماً ؛ لكنْ كيف يستطيع هذا الخَلَفُ إحياء ما غبَرَ واندثر ؟ إن الحضارات ما قبل الكولومبيّة ، المنبعثة والمعروفة أكثر من سواها ، يمكنها على الأقل أن تحظى باحتفاءٍ مماثل لما جرى لمدرسة الفن « الجداري » المكسيكي في القرن العشرين . لكنّ الحضارة الأميركيّة ـ اللاتينية الراهنة تتمثل في هذه البلدان الصناعيّة الجديدة (NPI) ، مثل المكسيك أو البرازيل ، مع مدنها الكبرى اللامحدودة ، مثل المكسيكو ، التي صارت أول مدينة في العالم ، وساو پاولو وبوينس آيرس . وفي البلدان المتوسطة التي يبدو أن أغلب سكّانها قد جاؤوا للسكن في ضواحي العاصمة : بوغوتا ، ليما ، الخ . إن أميركا اللاتينيّة ، حتى وإن كانت هي المدار الأقل اندماجاً ، إنّما تشكّل جزءاً لا يتجزّأ من المدار الغربي . الذي تتقاسم وإيّاه اللغات ، الثقافة ، التاريخ والأساطير .

الثقافة القديمة ما قبل المسيحية . ففي العام 391 ، كان البطريرك تيوفيل هو الذي طلب من الامبراطور تيودور إحراق مكتبة الإسكندرية الضخمة ؛ وفي العام 489 ، أغلقت مدرسة الطب في أديسا وانتقل الأطّباء إلى فارس ؛ وفي العام 529 ، طرد جوستنيان علماء أثينا وفلاسفتها ؛ وفي سنة 600 أحرقت المكتبة البلاطيّة في روما ، الخ . وكانت النتيجة أنّ إرثَ الثقافة اليونانية القديمة ، المتمثّل في 200 000 مجلد في مكتبة برغرام ، ينحصر ، في أيامنا بستين من المجلّدات بقطع 16 ، أي أكثر بكثير مما بقي من تراث مايا .

الفصل السادس

المدار الحضاري الأوروبي الشرقي

إن أوروبا الشرقيّة هي أوروبا دائماً : المشاهد نفسها ، البشر ذاتهم ، العائلة اللغوية الهندية الأوروبية الكبرى عينُها ، التنصير نفسه ، التاريخ ذاته ، والازدهار الرأسمالي والصناعي عينُه مع بعض التباينات ، ولكنْ هناك أيضاً من الغرب إلى الشرق ، نظامان سياسيّان ومنظومتان اقتصاديّتان مختلفتان ، وعالمان تفصلهما الحواجز ، وتسودهما إرادتان متباينتان لبناء المستقبل . إن القطيعة بينهما حديثة ، لكنّها عميقة ؛ وهي واسعة مثل جدار عازل أو ستار أسلاك شائكة ، ومع ذلك فهي تفصلُ أكثر من الأطلسي . إنَّهُ تباين حضاري قلّما حدث مثيل له في التاريخ ، ومع ذلك من الصعب تحديد مدّته أو درجة استمراره .

كان عشرات الآلاف من الألمانيّين الشرقيّين العاديّين قد وجدوا في خريف 1989 ، الوسيلة لاختراق جدار برلين وللمرور من الثقوب التي صنعها الهنغاريون في الستار الحديدي ، وأظهروا بقوّة مدى هشاشة تلك المفارقة حين أجبروا قادتهم - تحت طائلة فقدانهم الشعب - على إسقاط تلك الأسوار الهزيلة ، وعلى إنكار ذاتهم وزوالهم ، وكانت نهاية ذلك الطلاق المصطنع بين ألمانيّتين بمثابة الإعلان عن نهاية الطلاق بين الأوروبيتين .

I . الاتحاد السوفياتي

1 . البشر ، الأرض وثقل التاريخ

إن اتحاد الجمهوريّات السوفياتية الاشتراكيّة هو قلبُ المنظومة الأوروبيّة -

الشرقيّة ، فالاتحاد السوفياتي هو الامبراطورية الروسيّة المحوَّلة ، المحدثنة ، أي هو أكبر شعب أوروبي ، وحُده القياصرة ، « جامعو الأرض الروسيّة » ، إلى جانب شعوب قاصرة ، مجاورة ، سيكون « شقيقها الأكبر » . إنّ روسيا هي أولاً القسم الشرقيّ من الغابة الأوروبيّة المشتركة العظمى ، مع فسحاتها حيث استوعب السلافيّون القبائل الفنلنديّة مثلما استوعبوا الغزاة السكنديناڤيّين الأوائل ـ القاروجيون Les Varègues . وهي ثانياً أطرافها الشماليّة ـ البريّة القطبيّة والتوندرا ـ والجنوبيّة ـ السهوب المعشبة ذات الأراضي السوداء ، والسهوب الرمادية شبه الصحراويّة حيث تتجول الجماعات المختلفة اللغات الالتيكيّة ـ الخازاريّون ، البتشيكيّون ، الكومانيّون (Polovtses) ، البلغار ، المغول ، التتر . بعد تحرّرها من هيمنة هؤلاء الأخيرين عليها طوال ثلاثة قرون ، على يد إيڤان الثالث (الخامس عشر) ، أول « قيصر لكل بلاد روسيا » ، جرى إعلان عاصمتها ، موسكو ، بمثابة « روما ثالثة » لأنّ القسطنطينيّة ، « روما الثانية » كانت في أيدي الأتراك . وهكذا ، سيجد الروس أمام أبوابهم مجالات شبه صحراويّة ينبغي إعمارُها . ومع إيڤان الرابع الرهيب ،في القرن السادس عشر ،أدّت مطاردة التتر شرقاً إلى غزو سيبيريا وإلى وصول القوزاقيّين حتى المحيط الهادي الذي صار حدود أوروبا في القرن السابع عشر . ثم تحت حماية القوزاقيين دائماً ، هؤلاء الفرسان الشرقيّين والجنوبيّين ، (Far- West) ، صارت السهوبُ مأهولةً (القرن الثامن عشر) وسوف تعطي أطيب المحاصيل الأوروبيّة ؛ وفي ما وراء ذلك ، سيجري غزو الشعوب الجبليّة في القوقاز ، وكذلك غزو الأتراك في الواحات الآسيويّة الوسطى (القرن التاسع عشر) .

في هذا الإطار الفريد في أوروبا ، تمكّنت روسيا من الامتداد إلى آسيا وشهدت طفرةً بطيئة ، حافظت على كل الأنظمة العتيقة : دولة استبدادية من أصل بيزنطيّ ومتأثرة بأسوأ الأشكال الآسيويّة ، المتقاربة جغرافياً ، من أشكال الاستبداد الشّرقي ؛ وايديولوجيا قيصرية ـ بابويّة طموحة من أصل بيزنطي أيضاً ، حيث يمكن للدنيوي والروحي أن ينصهرا ، وحيث تخضع الكنيسة خضوعاً أعمى للدولة ؛ ومجتمع متمرتب ، حيث جرى توظيف النبلاء ،

وتشريف الموظفين ، وجرى تفكيك المدن وتحطيمها وحصر البورجوازية واسترقاق الفلّاحين . إنّه عمليّاً مجتمع نصف إقطاعي ، نصف دولانيّ ، حيث تمارس المُطْلَقيّة سلطانها في خلال قمع بلا حدود وفي اتجاه حوافز اقتصادية واجتماعية تحديثيّة معاً . ولكن مهما كانت معوقاتها ، فإن الامبراطورية القيصرية التزمت منذ بطرس الأكبر (1689 ـ 1725 - بمدرسة أوروبا الغربيّة ، وصارت في مطلع القرن العشرين خامس قوّة عالميّة ، ستؤدّي هزيمتها على يد اليابان الصغيرة (1905) إلى إصابة العالم بالدهشة . كان تصنيعها في ذروته ، إذْ كان يتغذّى من الاستثمارات الأوروبيّة وينهل من بروليتارية وافرة متدفّقة من الأرياف ، حيث جرى إلغاء القنانة منذ وقت قريب .

2 . « نموذج جديد » للدولة والمجتمع

بعد مرور عدّة أشهر على قيام ثورة ديمقراطيّة واشتراكيّة ، أدّى تسلّم البلاشفة للسلطة في اكتوبر 1917 إلى ظهور نظام حكم جديد قائم ، بعد تصفية الاشتراكيّين ـ الثوريّين ، على احتكار حزب واحد من ثوريّين محترفين ، متحدّرين من البروليتاريا والانتلجنسيا معاً . ففي مواجهة عدّة سنوات من الحرب الأهليّة والتدخّلات الأجنبيّة ، أنشأ الحزبُ اقتصاداً مبرمجاً تُمسك فيه الدولة بكل الجهاز الصناعي . وصار الثوريّون القدامى إداريّين موّجهين (stasicratie) يقودهم ستالين بقبضة حديديّة ، ويفسحون المجال أمام أجيال جديدة من بيروقراطيّين محترفين يشكّلون طبقة قياديّة متفعة من جهاز الدولة الاقتصاديّ ، ومكتفية تماماً بامتيازاتها الماديّة لدرجة أنّها لم تعد ترفض شيئاً ، وارتضت بممارسة « اللغة الخشبيّة » للخطاب .نماركسي الرسميّ . إن هذه الطبقة البيروقراطيّة المُقامة فوق نمط الانتاج الدولانيّ (رأسماليّة الدولة)[1] ، واصلت التصنيع المُبرمج للبلاد ، ثم أطلقت جمعنة الزراعة التي تجسّدت ،

---

(1) كان البلاشفة في فترة استلامهم الحكم يتصوّرون « رأسمالية الدولة » أو حتى « رأسمالية الدولة الاحتكارية » كمرحلة انتقالية إلى الاشتراكية والشيوعيّة . وبعد ذلك جرى الادّعاء بأن المجتمع الاشتراكي قد تحقّق وأن هذه المرحلة الانتقاليّة قد محتها العقيدة الشيوعيّة .

على المدى القصير ، في مجاعةٍ مماثلة لمجاعة الحرب الأهليّة ، وعلى المدى البعيد ، في نقص عام للإنتاج الزراعي إلى حدّ أنّ روسيا ، المصدِّرة في الماضي ، صارت مستوردة لمنتوجات غذائية أساسيّة ، وأنّ القسم الأساسي من الفواكه والخضار توفّرة « الملكيّات الفرديّة الصغيرة جداً » المتروكة في حيازة الفلّاحين الحرّة .

إن الحزب « النموذجي الجديد » كما أراده لينين ، على خطى بلانكي ونتشاييف ، أنشأ دولةً ومجتمعاً من « طراز جديد » أيضاً حيث امتد احتكار مجموعة للسلطة ليشمل مجمل المناشط السياسية ، الاقتصادية والثقافيّة ، دون أيّ معادل لحزب آخر ولا لاتحاد ولا قوّة نقابيّة ، ولا حتى لسوفياتات (مجالس) قُمعت نهائياً سنة 1921 في كونستدت . ظهر هذا النظام بوصفه أول مجتمع حديث ، دولانيّ تماماً ، وبوصفه أول دولة كلّانية (توتاليتاريّة)[1] . فقد وضع تقنيّات التلاعب بالجماهير من خلال الهيمنة الدائمة على وسائل الإعلام وتأطير كل فئات السكان في سلسلة مؤسسات مُقامة لهذا الغرض ، تروّجُ إرادة الدولة : حزب ، نقابات « مُعَسْكَرَة » ثم مُدولنة ، منظّمات الشبّان ، النساء ، الخ . والكل تحت رقابة جهاز قمعيّ شديد الحضور ، ممركز في الشرطة السياسيّة ويملك أماكن اعتقال جماهيري : معسكرات الدولة (Goulag) يمكنها « استقبال » ملايين الأشخاص ، أي « استقبال » شعوب بأسرها .

إن هرم السلطة ينطلق من المناضلين ، النشطاء المرموقين والمرشحين للارتقاء ، يجري اختيار متفرّغي الحزب والمنظمات الجماهيرية من بينهم : أي رجال الجهاز (appartchiks) الذين يقدّم رؤساؤهم (natchaliks) النخبة

---

(1) عندما عُيّن موسوليني رئيساً للمجلس ، كان قد مضى خمس سنوات على مشاهدته النظام المُقام في روسيا ، وسوف ينتظر أيضاً ثلاث سنوات ليفرض حزبه الأوحد . وعندما انتخب هتلر مستشاراً ، كان قد مضى أكثر من عشر سنوات على وصول موسوليني إلى الحكم . ولن يضيف النظام النّازي سوى درجةٍ إلى رعب غولاغ (إدارة الدولة لمعسكرات الاعتقال) لينين وتروتسكي وسيبريات موسوليني النارية : معسكر الإبادة (Vernichtungslager) .

القائدة (nom enklatura) التي يرأسها المرشد (Voja) ، الذي يحظى بـ « عبادة شخصيّة » ، أحياناً جنونيّة . وإنّ السلطان التراتبي للمراتب العليا على المراتب الدنيا داخل الحزب ، وسلطان الحزب على كل المؤسسات الأخرى ، إنما يُضاعف بواجهة ديمقراطية فاسدة تقوم على انتخابات غير تناقضيّة ، ترمي إلى المصادقة على تعيين المسؤولين .

ومن المفارقات أنّ الاقتصاد يبدو موجّهاً شطر الإنتاج ، وليس شطر الاستهلاك ، ومع ذلك تسودُه حالة نقص عام ، يطال الجماهير ولا يمسّ النخبة القياديّة ، فالنخبة القائدة تتمتع بعدّة امتيازات ، بعضها سريّ (مخازن خاصة بلا واجهات ، في مباني سكنيّة ، الخ) ، وبعضها ظاهر (طريق وسيطة خاصّة بسيّارات الليموزين الخاصة بالقادة في شوارع موسكو الكبرى ، وكرملين ستالين المخصّص للقادة ، مثلما كان حال الحاضرة الامبراطورية القديمة في پكين ، الخ) .

هنا أيضاً ثمّة تماثل مع تراث التمرتب الشّرقي ، تراث التفريق بين السُّلطة ، بأسرارها وامتيازاتها ، وبين الشُّعب ، وثمّة تباينٌ جذري واختلاف عن التراث الأوروبي الديمقراطي الذي بدأ في اليونان القديمة من خلال السّعي وراء التوزيع المتساوي للسلطة بين الجميع (isocratia) وتكافؤ الفرص (isonomia) ووضع السلطة في قلب المدينة (en Mésôı) وكذلك جعل الثروة والسلطة والثقافة شراكةً بين الجميع[1] . وإذا كانت أوروبا هي حقاً إبنة اليونان القديمة ، فإنّ روسيا هي بالحريّ إبنة بيزنطة ، أي ابنة يونان مصابة بعدوى الممارسات الفارسيّة للاستبداد الشّرقي ، ووالدة القيصريّة ـ البابويّة . وهي كذلك وريثة التراث المغوليّ ، العثمانيّ والبيزنطي القائم على اجتثاث شعوب بكاملها .

---

(1) « في مدينة تستهلم مثال تكافؤ الفرص (isonomıa) ، تجد السلطة والحكومة نفسها ، على حد التعبير اليوناني ، موضوعتين في الوسط ، بين الناس en mésôi ، ولا تكونان مصادرتين من قبل شخص خاص كالملك أو من قبل أقليّة مميّزة من المواطنين »

(J-P. Vernant, 1981، . P.95)

إنّ الطبقة الجديدة التي تدير النظام وتستفيد منه ، لم تعد منذ أمدٍ بعيد سلطة الثوريين (Stasicratie) لتغدو مجرَّد سلطة تقنو- بيروقراطيّة ، مضاعفة بسلطة عسكرية (Straticratie) تزداد قوّة وهيمنة : إنّ الثّقل وعدم الفعالية وضعف الإبداع والمردود الماديّ المنخفض للنظام لا تبدو ملموسة وحسيّة في القطاعات العسكرية أو الفضائيّة حيث لم تعد تطرح مسائل الكلفة ، نظراً لأنّها تقتطع جزءاً ضخماً من المنتوج القومي الخام (P N B) ، وتتمتع بأولويّة التجسس التقنولوجي ، وحيث ساد على الدوام جوّ السريّة والتراتبيّة .

3 . علامـاتُ التحجّر

إن هذا المجتمع المتصلّب والمتمرتب في عالم يسير فيه تطوّر التقنولوجيا والاعلاميا (الإعلام الآلي informatique) في اتجاه اللامركزية وتعدّد الأقطاب والعلاقات المتنوّعة الاتجاهات داخل شبكة متضّامة ، وليس في هرم تراتبي ، إنما يقدّم علامات تحجّر وتعب وارتكاس . فليس هناك عدم تحقق لمساواة المواطنين وإلغاء الفوارق بين الطبقات وحسب . بل هناك أيضاً مساواة الجنسين التي تجسّد أساساً تطور أي مجتمع ، لم تتحقّق أبداً . صحيح أنّ النساء اكتسبن المساواة الاقتصاديّة من طريق الوصول إلى الإنتاج في كل الفروع ، خصوصاً فروع الأعمال الصعبة ؛ إلاّ أنّ الأطر الوسطى والعليا لم تتأنّث مثلما تأنّثت في الغرب ، لا سيما في المراتب القياديّة للدولة والحزب ، حيث سجّل تراجع منذ الثورة ؛ وفي مجتمع قليل التوجّه شطر الاستهلاك المنزلي ودون خدمات منزلية مأجورة ، يظلّ وضع المرأة مطبوعاً بطابع المهام المنزليّة ، الحصريّة (دور الأجداد) أو ، وهذا أسوأ ، المضافة إلى العمل المأجور .

كما أن الغليان الفني والايديولوجيا لروسيا كانت ، في بداية القرن ، على عتبة الابتكارات الثقافيّة الأوروبيّة مع تولستوي ، دياغيليف ، كاندينسكي ، سترافنسكي ، ماياكوفسكي أو آينشتين ، أخلى الساحة لامثاليّة مجدبة وعقيمة لا يمكن الخلاص منها إلاّ بالهرب والانتحار أو الأدب السّري (Samizdat) . فلم يكن على الموهبة الإبداعية أن تسكت وحسب ، بل كان

يجري البحث عن الابتكارات في أوروبا وأميركا ، سواءٌ تعلّق الأمر بتقنيّات متطوّرة جداً على صعيد التقنولوجيا والاعلامياء أم تعلّق بأزياء الملابس وبالأساليب الموسيقيّة أو السينمائيّة . فاليوم ، يرتدي الكوادر السوڤيات الطقوم وربطات العنق التي يرتديها نظراؤهم الرأسماليّون ، بينما يبحث الشبّان عن الجينز ؛ ومنذ الرّجوع البعيد إلى البذلات في الجيش والشريطات والنياشين وعلامات التقدير في الجيش القيصريّ ، أخذت السلطة تبني عمارة نيوكلاسيكية جليلة وتبشّر بأخلاقيّة طهرانيّة ومنافقة مثل أخلاقية انكلترا الڤيكتوريّة .

مما له دلالته أنّ المفردة الروسية inakomyslicichtchii التي تعنيْ « أولئك الذين يفكّرون بشكل مختلف » ، قد صارت علامة اتهام خطير يمكنه أن يقود صاحبه إلى وضعه في دائرة المتّهمين ، إلى السجن ، إلى المصحّات النفسية أو إلى الإبعاد . فهذه هي الترجمة الحديثة لنعت هرطقي أو انشقاقي في مجتمعاتنا القروسطيّة ، الذي كانت روما وبيزنطة تتبادلانه . وهذا أيضاً هو المعادل لكلمة dissenter الانكليزية التي تدلّ على المجادل ، المخالِف ، المختلف مع الأكثرية ، والتي يستند إليها تراثٌ بروتستنتي كامل ، هو ، بين أسبابٍ أخرى ، وراء قيام أشهر مستعمرات أميركا الشمالية ومستوطناتها . فحين يُشتبه بكل رفض ، بكل عدم امتثال ، إنما يدير الاتحادُ السوڤياتي ظهره للتراث الأوروبي القائم على ثورة الفكر ، والمتمثل في هذه الجوقة الطويلة جداً من العقول المعادية للتقاليد ، العقول الريبيّة ، « المنفلتة » والمتحرّرة ، التي تميّز أوروبا . كذلك الحال بالنسبة لاعتبار صفة تحريفي بمثابة إهانة توجّه إلى أولئك الذين يعيدون النظر في العقيدة الرسميّة الماركسيّة ، وكأن الفكر العلمي لا ينطلق كلّه من مراجعات متتالية للفرضيّات المطروحة . وقد كان من الأمور الدالّة أن لينين قد سمّى جريدته الحقيقية (Pravda) في البلدان التي كانت تهيمن عليها الأرثوذكسية ، أي الإيمان الحق بالروسية (Pravoslavnyi). لقد كان تراث المذهبيّة العقائديّة قوياً لدرجة أن ذلك الذي ينتقد السلطة كان يتعيّن عليه أنْ يدّعي امتلاك الحقيقة على غرار ذلك الذي يمتلك السلطة .

أخيراً ، يلاحظ في الاتحاد السوڤياتي ، منذ الستينات ، ارتفاعاً في

معدّل الوفاتية ، وهذا من أهم المؤشرات العامة الدّالّة على حياة مجتمعٍ ما . فهذا معدّل يتواصل انخفاضه في كل بلدان العالم ، مع تقدّم الصحة العامة الذي وسمَ بداية الثورة السكّانيّة . لقد انتقل هذا المعدّل في الاتحاد السوڤياتي ما بين 1964 و1980 ، من 7٪ إلى 10٪ . وفي المقابل ، انخفض أمل الحياة لدرجة أن الحكومة لم تعد تنشر إحصاءاتٍ مفصّلة . فقد انخفض أمل الحياة في سنة واحدة ، ما بين 1965 و1981 ، من 72 إلى 69 سنة ، بينما كان يرتفع في فرنسا من 72 إلى 74 سنة . إن الإدمان على الكحول ، وهو مرض حضاري خطير جداً ، أدين بشكلٍ أساسي ، وكذلك الحال بالنسبة إلى حوادث العمل المرتبطة به نسبيّاً ، الأمر الذي من شأنه تفسير الوفاتية المرتفعة جداً عند الذكور . لكنْ هناك ظاهرة أشدّ خطورةً أيضاً ، وهي التفاقم الحديث للوفاتيّة العامّة المرتبطة بوفاة الأطفال ، والمرتفعة من 22,9٪ سنة 1971 إلى 28٪ سنة 1974 ، وهو آخر تاريخ نشرت فيه معلومات حول هذا الموضوع ؛ الأمر الذي يعبّر عن انحطاط الظروف الصحيّة ويتناقض مع الغرب حيث انخفضت وفاة الأطفال في كل أرجائه . ومن علامات التحجّر أيضاً ، الشيخوخة الثابتة لدى الكوادر العليا : الحزب ، الدولة ، الجيش التي يقودها كهول عقيمون ومعقّمون .

إن وصول غورباتشيف إلى السلطة سنة 1985 ، الذي تلاه الإعلان عن المبادىء الثلاثة : إعادة البناء (البروسترويكا) والشفافية (غلاسنوست) والديمقراطية ، لم يكن قد سمح بغير « إصلاح » نسبيّ للسلطة . إلاّ أن عام 1989 الخيالي قاد شعوب الاتحاد السوڤياتي إلى التحرّك والسير على طريق الخروج من الاتحاد منذ العام التالي : أولاً الليتوانيّون ، ثم البلطيقيّون الآخرون ، القوقازيّون ، وحتى الروس ، الأوكرانيّون ، والروس البيض . بحثوا عن السيادة والحياد وانقلبوا نحو أوروبا الأخرى . وصار تعدّد الأحزاب واقتصاد السّوق أمراً راهناً ؛ وأن الافلاس الكامل لنظام احتكار الدولة للاقتصاد لا يحتاج إلى برهان : فقد ظهر مجمل المدار الشامل لهذه الأنظمة كأنّه أصيب بزلزال وأنّه لم يكدّس سوى التخلف والتأخر . لقد انتهى الانشقاق الأوروبي الكبير وعادت الحضارة الأوروبيّة إلى قيمها المشتركة : تحرير الفرد ، مراقـ

السلطة ، حرية الرأي .

II . البلدان المتأثرة بالنفوذ السوفياتـي

عندما عـرض البلاشفـة سنة 1917 حق تقـرير المصيـر على الشعوب « الـدخيلة » في الامبـراطـوريـة القيصـريـة ، اختـارت تلك الشعـوبُ كلهـا الاستقلال . لكن الجيش الأحمر سيعاود غزوها كلّها ، من أوكرانيا إلى آسيا الوسطى مروراً بالقوقاز . باستثناء الشعب الفنلندي والشّعب البولـوني ، لكن ليس بلا ضغط . وستكون الثورة الصينيّة مناسبةً لتحويل مونغوليا الخارجية إلى محمية : أول « ديمقراطيّة شعبيّة » . أما معاهدة هتلر ـ ستاليـن سنـة 1939 ستسمـح بتجديـد ضم بلدان البلطيق وأراضٍ أخرى بـولـونيـة ، رومـانيـة ، فنلنديّة ، وهذا ما ستؤكّده عمليّاً معاهدات يالطا وبـوستدام (سنـة 1945) بإضافتها احتلال أوروبـا الشرقيّـة وجزء من الصين وكـوريا إلى مـا سبق من احتـلالات . وإن إقامـة « ديمقراطيّـات شعبيّة » في كـل هـذه المنـطقـة من « الجليد » السوفياتي ، شهدت عدّة تحولات : إذْ أنّ البلدان التي لم يحتلّها الجيش الأحمر انفصلت عن الكتلة : يوغسـلافيا سنة 1948 ، الصين سنة 1960 ، ألبانيا سنة 1961 ، ثم كوريا الشمالية ، ولقد حاولت البلدانُ المحتلّة الانعتاق بأشكال شتّى : سنة 1953 ، قام الجيش الأحمر بالقضاء على انتفاضة المراكز الصناعيّة في ألمانيا الشرقيّة ؛ وفي سنة 1956 ، جرى مجـدّداً غزو هنغـاريا التي نـدّدت بالتحـالف السوفيـاتي ، وفي العام 1968 سيجيء دور تشيكوسلوفاكيا معاقبةً لها على رغبتها في بناء « اشتراكية ذات وجه إنساني » . إن البلدان الدائرة في فلك الاتحاد السوفياتي كانت تُقاد بعقيدة بريجنيف « حول السيادة المحدودة » التي تفرضها عليها « الاشتراكيـة القادمـة من الجليد » ، شيـوعيّة الـدبّابـات le panzerkommunismus . سنة 1981 ، وضعت في « حالة حرب » پولـونيا التي تفكّـك حزبُهـا الشيوعي ، وفُـرضت ديكتاتـورية عسكريّة في مواجهة شعب عاد إلى الحركة النقابيّة الحرّة .

هكـذا ، كان الـنظام العسكـري ـ الـدپلومـاسي يكتّـل حـول الاتحـاد

السوفياتي كتلةً من ست بلدان أوروبيّة (ألمانيا الشرقيّة ، پولونيا ، تشيكوسلوفاكيا ، هنغاريا ، رومانيا ، بلغاريا) وآسيوية (مونغوليا) مندمجة في حلف ڤارصوفيا ومجلس التعاضد الاقتصادي (C A E M) الكائن في موسكو ، اللذين يجعلان هذه البلدان ترتبط ، وبدرجات مختلفة ، بتطور المجتمع السوفياتي وبالتالي بذلك الانشقاق الشّرقي نفسه عن الحضارة الأوروبيّة .

بين « الديمقراطيّات الشعبيّة » الأخرى ، اختارت الصين وكوريا وأنشأت نماذج سياسيّة اقتصاديّة مختلفة ومنتمية إلى حضارة أخرى . في المقابل ، شكّلت الڤيتنام وكمبوديا واللاوس كتلة مؤيدة للسوفيات في مدار حضاري غير أوروبي . وكذلك الحال بالنسبة إلى كوبا . وأخيراً دخلت أفغانستان بدورها ، سنة 1979 ، في منظومة الاحتلال السوڤياتي و« الديمقراطيّة الشعبيّة » ، وشهدت مدى صعوبة انسلاخها عن المدار الحضاري الإسلامي من خلال مقاومة شديدة . وأينما حلّ النفوذ السوڤياتي في العالم الثالث تماهت « الاشتراكيّة » مع الأسوأ ، وتجسّدت في أنظمة قمع بوليسيّة ، وفي أحسن الأحوال تماهت مع قوالب حكم متحجّرة ، واقتصادات عوز ومجاعة[1] ، وتحجّر بيروقراطي وامتيازات ضخمة للحاكمين ، كما كان الحال مثلاً مع غينيا سيكو توري (1958 ـ 1984) . وبدلاً من التخطي المُعلن للحضارة الأوروبيّة ، جرى إنتاج صورة كاريكاتورية عنها . فيا لها من نهاية حزينة لتجربةٍ ولدت في هذه « الإشراقة الكبرى شرقاً » التي بهرت وسحرت كثيراً من الناس في العالم[2] .

---

(1) وقعت أكبر مجاعات القرن العشرين في النظام الشيوعي : في الاتحاد السوفياتي ، مات 5 ملايين سنة 1921 ـ 1922 ، و 6 ملايين سنة 1933 ـ 1934 ؛ ومات في الصين 30 مليون ما بين 1959 و 1961 ، منهم 9 ملايين سنة 1960 ، وأخيراً في أثيوبيا حيث أوقع الجوع من الضحايا سنة 1983 ـ 1985 أكثر مما أوقع سنة 1973 ـ 1974 عندما أُطيح بالنجاشي .

(2) مع ذلك فإن انقلاب الاشتراكية متوقّع حتى في داخل الحركة الاشتراكيّة ، لا سيما من قبل المتحرّرين مثل باكونين الروسيّ الذي كان قد أعلن : « خذوا أشد الثوريّين حماساً وأعطوه عرش كل بلاد روسيا : في مدى عام واحد سيغدو هذا الثّوري أسوأ من القيصر » . والذي كان قد توقّع أيضاً ولادة طبقة جديدة ، قليلة العدد ومتميّزة ، « طبقة المديرين ، ممثلي وموظفي

إن ثورات 1989 ـ 1990 المتسلسلة ـ انفتاح هنغاريا، قيام حكومة غير شيوعية في بولونيا، انهيار «ألمانيا الشرقيّة»، «الثورة المخمليّة» في تشرين الثاني/ نوفمبر في البلدان التشيكية والسلوفاكيّة، انتفاضة بودابست في كانون الأول/ ديسمبر، التطورات البلغارية واليوغسلافيّة والألبانيّة وحتى المونغولية سنة 1990 ـ قد فجّرت امبراطورية كان مركزها في ذروة الانصهار. ولم يبق من هذا النظام إلاّ طرفُه الآسيوي، الصين، كوريا الشمالية، الفيتنام، الوريثة المباشرة لنظام الاستبداد الشرقي. وأما بلدان العالم الثالث التي كانت قد نسخت النموذج (الجزائر، الحبشة، موزمبيق، الخ.) فهي تدير له ظهرها، الواحدة تلو الأخرى، فالروابط العسكرية تنحلّ مثلما تنفك عرى التضامن الايديولوجي وتنضب المساعدات الاقتصادية: فلم تعد الدولة العامة والمجتمع العسكري والاحتكار البوليسي لحزب واحد على الفكر، وقوّة الزعماء تشكل ردوداً على مسائل العالم الحديث. إن روسيا وأولئك الذين قلّدوها، حين أداروا ظهرهم لأوروبا وحاولوا استملاك الاستبداد الشرقيّ وتعزيز جانبه الآسيوي (لينين والآسيوية الصينية)؛ إنّما أخّروا أنفسهم عن عصرهم، لا أكثر.

الدولة الشعبية المزعومة» (ألمانيا وشيوعيّة الدولة، 1872)، طغمة قائدة «أجل، بالطبع، من غير العمّال الذين ما أن يصبحوا قادة (...) حتى لا يعودوا عمّالاً ويبدأوا بالنّظر من فوق إلى تحت نحو الجماهير الكادحة. منذ ذلك الحين لن يعودوا يمثّلون الشّعب بل يمثّلون أنفسهم ومزاعمهم الشخصيّة لحكم الشعب» (Etatisme et Anarchie, 1873).

الفصل السابع

المدار الحضاري الزنجي ـ الافريقي

I . مجاميع بيوجغرافية ، أعراق ، لغات

إن افريقيا الصحراوية الجنوبيّة أو شبه الصحراوية هي أيضاً أفريقيا السوداء لأن فرادتها الأساسيّة تعود إلى سكّانها من العرق الأسود . غير أن وحدتها الطبيعية لا تقلّ عن ذلك فرادةً : فهي مجال مداري استوائي ، منغلق على ذاته من خلال الصحراء شمالاً ، ومن خلال المحيطات شرقاً وغرباً . ففي العربية تدلّ كلمة ساحل على الشواطىء والسواحل معاً ، أكانت سواحل الصحراء أم سواحل البحار . وهناك عدّة مجاميع بيوجغرافية ، أو Biomes ، تكوّنُ هذا المجال . هناك في الوسط ، عند المرتفعات الإستوائيّة ، ولكن عند المناطق المنخفضة فقط ، توجد الغابة الكثيفة « المطيرة » ، المنقسمة إلى كتلتين : كتلة كبيرة تغطي الشمال كلّه من الحوض الكونغولي وتمتدّ غرباً حتى دلتا النيجر ، وكتلة صغيرة في الغرب على امتداد ساحل غينيا . وتنتظم حول الغابة الكثيفة ، كهالاتٍ دائريّة ، الغابةُ المنوّرة وشتى غابات السافانا ـ الرطبة ، المشجرة أو المعشبة ، والجافّة ، القابلة للتشجير ؛ ثم الغابة الشوكيّة والسهوب شبه الصحراويّة ، المتطابقة مع المناخات ذات الفصل الماطر القصير أكثر فأكثر ، بقدر ما يتمّ الإبتعاد عن خط الإستواء والإقتراب من الخطوط المداريّة الجافّة : الصحراء في الشمال ، كالاهاري في الجنوب . مع انقطاع في الشّرق ، ناجم عن الارتفاع ـ الهضاب الأثيوبيّة وهضاب البحيرات الكبرى المغطّاة بالأشجار ـ ، يليه النزول مجدداً نحو صحراء الصومال وصحراء عفار .

في هذا المجال المداري الداخلي الكبير ، أخذ العرق الميلانو ـ

الأفريقي أو الزنجي الأفريقي يتمايز ويتشعّب نسبياً في أعراق فرعيّة أو نماذج أقوام، مهيمنة في كل منطقة كبرى : النماذج السودانيّة ، الغينيّة والكونغوليّة ، النيليّة ، الزامبيّة أو الجنوبية الأفريقيّة ، دون أن يؤخذ في الحسبان العرق الأثيوبي ، الوسيط بين الأعراق البيضاء والسوداء ، وربما يكون أعرق منها . يضافُ إلى ذلك العرقان الأفريقيّان « القديمان » ، المنزوي أحدهما في الغابة الكثيفة (Les Pygmées ou Négrilles) ، والمنطوي ثانيهما في الكالاهاري ، (Les Bochimans أو San) .

تتكلّم الشعوبُ السّوداء اللغات الخاصة بأفريقيا . في الجنوب ، هناك لغات خوازان (Khoisan) عند الهوتنتيّين والبوشيمانيّين ؛ لكنَّ بعض سماتها ، مثل « الطقّات clics » ، تظهر في لغات التخوم التانزانية القاحلة ، الأمر الذي يسمح بالافتراض أنَّ كل جنوب أفريقيا استطاع الانتماء إلى تلك اللغات وأولئك السكان . في الوَسط ، لا يملكُ البيجميّون (أو ما عادوا يملكون ؟) لغاتٍ خاصة بهم ويتكلّمون لغاتٍ قريبة من لغات جيرانهم . ولغالبية السُّود الأفارقة لغاتٌ تنتمي إلى العائلة النيجيرية ـ الكردفانية الكبرى ، المنقسمة إلى عدّة فروع ، والمنتشرة من السودان إلى ساحل غينيا ، والتي تتفرّع عنها البنوي ـ كونغو المشتملة على مجموعة البانتو ، والممتدة فوق مجال واسع يمتدّ من نيجيريا إلى أفريقيا الجنوبيّة ، وتحيط في آن وتخترقُ الغابة الكثيفة . وفي الشمال ، فوق التخوم الساحليّة ، اجتمعت عدّة جماعاتٍ في مجمّع نيليّ ـ صحراوي ، يمتدّ من جنوب السّودان إلى فم النيجر . أخيراً ، هناك كتلتان من سكان الصحراء الجنوبيّة تتكلّمان اللغات الأفرو ـ آسيوية (« الساميّة ـ الحاميّة » سابقاً) . تنتمي إحداهما إلى النماذج الزنجيّة ـ الأفريقيّة وتشغل كل شمال نيجريا ـ مع الهاووسا طبعاً ـ وجنوب حوض بحيرة التشاد : إنها المجموعة التشاديّة . وتتطابق ثانيتهما مع شعوب « القرن الأفريقي » : أحباش الهضاب والسفوح ، ذوو اللغات السّاميّة الجنوبيّة ، وشعوب السُّهوب ، كالصوماليّين ، ذوي اللغات الكوشتيتيكيّة . إنَّ هذه القرابات اللغوية ، من طرفي المنطقة الصحراويّة ، كوجود جماعات انثروبولوجيّة وسيطة بين البيض والسُّود ، من الحبشة إلى المنطقة الساحليّة ، يمكنُ تقريبُها من جفاف الصحراء

في الألف الثالث ، الذي نجمت عنه هُجرات وانفصالات بين الجماعات البشرية .

II . الحضارات والحلقات الثقافية

أنتج سكّانُ أفريقيا السوداء طرق معيشة متكيّفة مع شتى البيئات الطبيعيّة التي كانت تعيش فيها ، والتي أنجبت تشكيلة كاملة من مجتمعاتٍ مفروزة بدقّة . كان كتاب بومان و سترمان المأثور يميّز بين 8 نماذج حضاريّة كبرى كان تدامجها قد أدّى إلى وجود ثلاثين حلقة حضارية (أو مدار ثقافي) . إن الحضارات الأولى هي حضارات البيجميّين القنّاصين وجامعي الثمار في الغابات ، والبوشيمانيّين ، القنّاصين والصيّادين في السّهوب . ثم الحضارات المسمّاة النيجرية (العصر النيجيري) ، أي حضارة العصر الباليو - نيجيري في الغابة المطيرة ، حيث تحول ذبابة تسي - تسي دون أية تربية للمواشي ، القائمة على الزراعات المستديمة (بلا وتيرة موسميّة : تتساقط الأمطار في كل الأوقات) للدرنيّات والموز في حقول ظرفيّة تستصلح باقتلاع الأعشاب : اقتصاد بساتين لـ « راجسي الحقول أو لاحسيها » . أو حضارة باليوسودانية في مناطق السافانا (ذات الموسم الجاف) حيث تندمجُ البستنة مع حقول الذُّرة البيضاء (الدُّخن) .

إلاّ أنَّ قسماً كبيراً من مجال السافانا تلامسه اقتصاداتٌ قائمة على تربية الماشية إلى حدٍ بعيد . والنموذج الأصفى يمثّله كبار مربي المواشي في افريقيا الشرقية ، من النيل الأعلى إلى الزامبيز ، مروراً بالبحيرات الكبرى والسهوب الصوماليّة : رعاةٌ يتغذّون بشكل أساسي من الألبان ومشتقاتها ، ويستخدمون المزارعين المحليّين . وفي جنوب الزامبيز يجمع سكان أفريقيا الجنوبيّة بين زراعة الذّرة البيضاء والصفراء ، التي تمارسها النساء ، وتربية المواشي في قطعان كبيرة ، وهذه حكْرٌ للرجال ، المنجذبين الآن أكثر فأكثر نحو الصناعات الجنوبيّة الأفريقيّة . بينما في تخوم الكالاهاري ، يُعدّ الهوتنتوتيّون (الخوي khoï) والهرّوريّون (البانتو) رُعاةً فقط ؛ ويُعدّ رعي المواشي في المنطقة

السودانية من اختصاص بعض الأقوام مثل الفولبي (peul) .

أخيراً ، تشكّل الهضاب الحبشيّة جزيرةً مرتفعةً مميّزةً بالزراعة التي تستعمل المحراث القادم من مصر القديمة ، والتي تشتمل الزراعة على الشعير والقمح : إنها مملكة أكسوم القديمة ، المتنصّرة في القرن الرابع . أما مدغشقر ، الشديدة التميّز بانعزالها أيضاً ، والمنفردة منذ القدم بحيواناتها ونباتاتها ، فهي مأهولة منذ الألف الأول ق.م. بعناصر ماليزيّة ، تجدّدت لاحقاً ، سوف تقوم في آنٍ بتطوير لغتها الأسترونيزيّة وحضارة مرتفعيّة أخرى تجمع بين تربية الأبقار وزراعة حقول الأرز .

بوجه عام ، عاشت المجتمعاتُ الأفريقيّةُ لأمدٍ طويل منقطعةً عن بقيّة العالم في وضع من المرض التقنولوجي ، حيث كانت الأدواتُ الوحيدةُ هي العصا النقّابة ، المجرفة ، البُليطة ، الفأس ، ثم الساطور .

« لم تعرف أفريقيا المداريّة الدولاب : لا النّقالات ولا العربيات ولا البكرات ، ولا دواليب الخزّاف ، ولا الطواحين الهوائيّة ، المائية أو اليدويّة . كما لم تمرُّ عبر الصحراء ، المنشارة ، المِنْجَر ، ملاط الكلس، القرميدُ والآجرُّ المشويّان . وقلّما تغلغل الرّي في أفريقيا السوداء ، التي كان يمكن لمساحاتها الشاسعة وسوف يكون في إمكانها أن تستفيد منها كثيراً ؛ وبالكاد شهدت أفريقيا السوداء ظهور البشر المزوّدة برقّاص، والنواعير والدّلو» (P. Gourou, 1982, P.112).

وحدهم الأحباش كانوا يمارسون خزن الغلال في الأهراء (السلوجة) : ولم يكن يحصد الحشيش ويجفف ويحفظ للعلف في أي مكان آخر . وظلّت العصا النقّابة والمجرفة من أهم آلات النّكش . وكانت تربية المواشي ظاهرة اجتماعية وثقافية أكثر منها اقتصاديّة . وكان الرُّعاة الكبار يحلبون المواشي لكنهم ما كانوا يذبحونها لأجل لحومها ، بينما كانت تربى الماشية في أماكن أخرى لأجل لحمها ولكنّهم لا يعرفون الحلب . . . ومن حسن الحظ أنّ القاعدة المعيشية قد اتّسعت على مرّ الأجيال . في البداية لم يكن لديهم سوى الإنيام (igname) وبعض أنواع الدُّخن . وجاءهم من الشّرق الموز والقلقاس ، ومن

أميركا البطاطا الحلوة ، المنيهوت ، الفول السوداني (الفستق) ، اللوبياء والذرة الصفراء .

III . المجتمعات المتشعبة وولادة الدول

من هذه القاعدة الزراعية الفقيرة ولدت مجتمعات زراعية عديمة الرأس أو « متعدّدة » الشّعب عموماً ، تسمّى اليوم سلاليّة ، لا تتضمّن سوى بنى اجتماعيّة ـ سياسيّة دُنيا ، ستظهر منها زعامات ذوات سلطات محدودة . فلم يتعمّق كثيراً التمايز الإجتماعي : طبقات حدّادين وسحرة ـ شعراء (griots) . وترتكز المعتقدات على قاعدة أرواحيّة وتقف في مواجهة السّحر ، عبادة الأجداد ، ومنظومات تسليك الشّبّان وعدّة تظاهرات احتفالية تسودُها الموسيقى والرقص والاقنعة والتعويذات : وكلها ثقافة المشافهة .

ظهرت عدّة دول حقيقيّة في مختلف نقاط أفريقيا السّوداء . أولاً ، في الألف الأول ق.م ، وبالترابط مع مصر ، ظهرت دولة في النوبة ، بلاد الكوش (الناپاتا ، المرو) وفي الحبشة ، بلاد اكسوم ؛ وكلّها بلاد تنصّرت في وقت مبكّر جداً ، منذ القرن الثالث ؛ وحدها دول النوبة سوف تعتنق الإسلام اعتباراً من القرن الثالث عشر . ثم في المنطقة السّودانيّة ، المتصّلة تجارياً عبر الصحراء بالعالم المتوسطيّ : مملكة ساراكوليّ في غانا منذ القرن الرابع م. هنا ستؤدي ديناميكيّةُ الإسلام إلى ولادة دول متنازعة ، تارة إسلاميّة ، في السافانا ـ تكرور (القرن التاسع) ، مالي ، سونغي ، هاووسا ، كانم ـ بورنو ، باغيرمي ، واداي ، دارفور ، السُّودان ـ ، وتارة وثنيّة ، في الغابة ـ موسي ، آشاني ، داهومي ، يوروبا ، بنان ، نوپي . وفي جنوب الغابة الكونغوليّة ، ظهرت على الساحل دولة لوانغو (القرن الخامس عشر) ، وبشكل خاص مملكة الكونغو ، وفي الداخل ظهرت ممالك لواندا ولوبا . في المنطقة الزامبزيّة لم تكشف الأنقاضُ السيكلوبية بعد في زيمبابوي (الثاني عشر ـ الخامس عشر ؟) عن سرّ امبراطوريّة مونوماتاپا ومناجمها الذهبيّة . في أفريقيا الشّرقيّة أنشأ الرُّعاة الكبار ، منذ القرن الرابع عشر ، مملكة البحيرات الكبرى ، بينما أُقيمت متاجر عربية على طول الساحل

منذ القرن الثامن ، مثل متاجر زنجيبار التي اجتذبها الذّهب وتجارة العبيد . وفي أقصى طرف القارّة الجنوبي ، مملكة زولو ، المتمثّلة بشاكا في القرن التاسع عشر ، بوصفها آخر عقبة أمام تغلغل البويريين والبريطانيّين .

لقد قضت المنظومة الاستعمارية على التطور الدولانيّ الأفريقي حين فرضت في كل مكان الهيمنة المباشرة أو غير المباشرة للقوى الأوروبيّة . فبعد خصومات شديدة اتفقت هذه القوى في مؤتمر برلين (1884 ـ 1885) على اقتسام أفريقيا؛ وستغدو كلّ الأراضي الأفريقية إما بريطانية، وإما فرنسيّة، وإما برتغاليّة، بلجيكيّة، ألمانية، ايطالية، إسپانية. الأمر الذي أدّى بعد الحربين العالميتين (اللتين أنهيتا نفوذ الألمان والطليان) وبعد تصفية الاستعمار ، إلى جعل القارة السوداء منقسمة إلى دولٍ مستقلة ، ناطقة بالانكليزية ، بالفرنسية أو البرتغاليّة . إنّ هذه الدول ، الناشئة بعد 1960 بوجه خاص ، على أساس الأقاليم والحدود الاستعماريّة هي بوجه عام متعدّدة الأعراق وتتخذ من اللغة الثقافية الموروثة عن المُهيمن القديم عاملاً أساسياً من عوامل وحدتها الوطنيّة . إذْ أن العامل الآخر هو المركزة الإداريّة ، الثقافيّة ، وعموماً ، الاقتصادية في العاصمة . فالعواصم الحضريّة الأفريقيّة سرعان ما تركّزُ فيها ، كما هو الحال في معظم العالم الثالث ، جزءاً متعاظماً من النشاطات ومن السكّان في كل بلد . وإنّ أفريقيا هي قبل كل شيء تركيبة من خمسين دولة جديدة تحاول كل منها توطيد وحدتها الحديثة ، بأسلوب « استزلامي » أو « وطني » .

IV . الرؤية الثقافية والهشاشة البنيوية

لكنّ الخصوصيّة الزنجيّة ـ الأفريقيّة تبحث عن ذاتها . فهي تملك منذ أمدٍ بعيد محاميها الذين جعلوا من الزنوجة مفهوماً تعبوياً على الرّغم من انتقاد ورفض المُرسَل إليهم . ذلك أنّ الحضارة الزنجيّة ـ الأفريقيّة ، المنطوية منذ زمنٍ بعيد على ذاتها في مدارها المحدود جداً ، والمناطة بسمات خاصّة مميّزة جداً ، إنما تبدو مشبعة بإرادة تحديد مساهمتها الخاصّة في جوقة الحضارات . ويعمل اليوم الأفارقةُ على مضمون هذا التحديد وعلى القيمة الشموليّة لهذه المساهمة .

لكنْ من المؤكَّد ، فيما يتعدَّى هذا البحث الوجداني عن الأصالة الثقافيَّة ، أنَّ التغريب يتقدّم بخطىً عملاقة ، كما هو الحال في أوقيانيا وفي أميركا الهنديّة . أولاً مع التنصير الواسع الموروث عن العصر الاستعماري والهادف إلى استئصال كل مظهر « وثنيّ » ، خصوصاً في الفن (رقص ، تام - تام ، نحت) ؛ ذلك التنصير الذي طاول بوجهٍ خاص مناطق الغابات بينما كان الإسلامُ يتقدَّمُ في غابات السافانا السودانيّة . ثانياً الاستيعاب اللغوي من جانب الاحتكار الحصري تقريباً لثلاث لغات أوروبيَّة في مجال التعليم والإعلام . أخيراً ، التصنيع البطيء مع نمو حَضَريّ متسارع . فمن الشريان العرقي ، شريان الجدود ، تتدفّق بوجه خاص إيقاعاتٌ موسيقيَّة مدعوَّة لجولةٍ على العالم ، ولكنَّ الأعمال التشكيليَّة (البلاستيكيّة) يتناقص تدفّقها نظراً لزوال أسبابها ، وينسابُ قليل من الآداب الشفهيَّة ، التي كسفتها وسائل الإعلام وسلعها الكوسموبوليتيّة .

أخيراً ، على الصعيد الاقتصادي تبقى أفريقيا السوداء مطبوعةً بطابع علامات التخلّف الأشدّ خطراً ، فالانتاج الزراعي سجينُ تقنيّات قديمة وجاهلة لاستعمال المياه ، لا يزال قليل المردود ويجعل الفلاّحين أنفسهم يشمئزّون من الأرض : إنّهم ينجذبون بشكل واسع إلى سراب المدينة حتى عندما تكون الأرضُ خصبةً ، مرويَّة ومعطاء و . . . مجانيّة[1] . هناك بعض القطاعات التصديرية خاضعة فقط لتنظيم المؤسسات العامة أو شبه العامة (صناديق التوازن والاستقرار ، شركات اقتصادية مختلطة ، الخ) التي تجني من ورائها أكبر الأرباح .

أما الحالة الصحيّة للجماهير فتستخفُّ بها الدول التي تخطّاها النّماءُ الحَضَري . إن معدّلات وفاة الأطفال تفوق كل المعدّلات . ولكنْ في غياب كل توجُّه لمنع الحمْل تبقى معدّلات الولادة قريبة من الحدّ الأقصى البيولوجي (46٪ سنة 1982 في مجمل القارّة : وهذا أعلى من أي معدَّل في العالم) ، الأمر الذي يترك لأفريقيا أعلى معدّلات النمو السكّاني ، على الرغم

(1) ملكيّة جماعيّة للأرض ، انعدام وجود طبقة ملاّكين عقاريّين . ومع ذلك تسبق الهجرة الريفيّة تشبُّع الأراضي المزروعة ، النادر وجوده خارج السّاحل .

من معدل الوفيات المرتفع جداً فيها . غير أنَّ هذه القارة مشهورة بأنها قليلة السكّان : فلا يكاد سكّان أفريقيا بأسرها يزيدون عن سكان أوروبا من دون الاتحاد السوفياتي ؛ إنّهم يقابلون تقريباً نصف سكان الصين أو شبه القارّة الهنديّة ، مقابل مساحة أكبر منهما بثلاث أو أربع مرّات . إذْ يمكن للازدياد السكّاني أنْ تستوعبه الأراضي شرط إبقائهم على أرضهم وتغذيتهم ، وهذا ما لا يحدث . وكلُّ البلدان الأفريقية هي مستوردة أكثر فأكثر للمواد الغذائيّة ، بينما تفرغُ أريافها من السكّان .

إن أفريقيا بعد الاستعمار تجمع ما بين الاستقلال السياسي والتبعية الاقتصاديّة ، الأمر الذي يشرّع الأبواب أمام كل الممارسات الاستعمارية الجديدة . فالاقتصادات الوطنيّة تكون هشّة (vulnérable) بقدر ما هي محبوسة ومعزولة . فمن أصل 35 بلداً مصنّفة في عداد « البلدان الأقل تقدُّماً » ـ تصنيف الأمم المتحدة سنة 1982 ـ هناك 25 بلداً في أفريقيا السوداء مقابل 8 في آسيا ، وبلد واحد في أوقيانيا ، وواحد في أميركا . وإن أفريقيا السوداء هي اليوم على أبواب الحضارة الصناعيّة ، الحضريّة ، الغربيّة ؛ لكنَّ دولها التي لا تكاد تتخطى عيد ملادها الخامس والعشرين ، هي بوجه خاص دول هشّة ومفتقرة إلى موارد ماليّة ، بشريّة وايديولوجيّة ضروريّة لتخطّي الآلام والمصاعب التاريخيّة . فبعد آلاف السنين من الجمود ، وبعد قرون من النّهب الذي استنفد قواها الحيّة وبعد قرن من الاستغلال الاستعماري المجنون ، هناك ربع قرن قد مضى على مواجهتها الحداثة ، وهذا زمن قليل .

لقد استطاع انهيار الأنظمة الشيوعية 1989 ، أن يبيّن لكثير من الأفارقة أنَّ إضافة أسوأ ما كانوا قد أخذوه عن النموذجين الأوروبيّين ، الرأسمالي (الحرية الجمركية المفيدة فقط للطبقات الحاكمة) والسوفياتي (نظام بوليسي ودولنة جنونية لمعظم القطاعات الاقتصاديّة) لم تكن سوى طريق أفريقية نحو اللاتنمية . يبقى أن نعرف كيف ستتمكن كل دولة أفريقية ، تابعة ، أبويّة ، استبداديّة ، مشلولة ، فاسدة ، ومدعومة ، من إصلاح ذاتها ، وكم تحتاج الشعوب الأفريقية من الوقت لكي تبدأ بالتيقظ وبلوغ الردود الإيجابية التي بلغتها أوروبا الشرقية . هنا نرى مدى إمكان ضغط شتى المقوّمات الحضاريّة .

ختـام

« لم تبق فراغاتٌ على الخريطة
لقد بدأ عصر العالم المتناهي »

پـول ڤاليــري

من بين الحضارات العديدة التي تكوّنت في مجرى حياة البشرية ، هناك ست حضارات تسودُ العالم الراهن ، وتتقاسمه من خلال مدارات متداخلة ، لكن من دون عوازل قاطعة . وبعض الحضارات التي يُعتقد أنّها زالت ، لا تزال تعيش من خلال جماعات إثنية ـ دينيَّة مترسّبة في صميم مجاميع أكبر ، ويعيش كثيرٌ من الجماعات الإثنيَّة وفقاً لأشكال حضاريّة قديمة ، على هامش المجتمعات التاريخيّة . وكلتاهما تستحقان المعاملة بوصفهما حضارات ، أي منظومات بنيوية أصيلة ومستقلة . والحال ، إذا كان ثمَّة معيارٌ لم ينقـطع في نهاية المـطاف عن الغلبة في مجـرى التاريـخ ، فهو معيـار الحجم : حجم المشـاركين وامتدادهم في مجـال واسع . فـلا يمكن القول إنَّ المنـظومـات المجتمعية الكبرى هي وحدَها حضارات . بل نجدُنا مُرغمين على الاستنتاج بـأنَّ الحضارات الكبـرى تنمو وتنتشـر ؛ في حين أن الحضـارات الصغـرى تتمزق ، تتفتت وتزول .

إنَّ الحضارات منظومات مركّبـة معرَّضـة للتغيّر والتبـدُّل ، قائمـة على منظومات فرعيّة ، اقتصادية/ سياسية/ اجتماعيّة/ ثقافيّة متطوّرة نسبيّاً ، يمكن لعنـاصـرهـا أنْ تتبـدّل وفقـاً لأواليَّـاتٍ داخليَّـة للتنـظيم الـذاتي . وإنّ هـذه المنظومات ، المتصلّبة نسبياً ، تحبس أعضاءها في ظرفٍ تناقلته الأجيال . ولا يمكن التشـديدُ كثيـراً على أثر الثقـافات في الأفـراد ، مهما مستـوى التطوّر والتكثّف الذي تمّ بلوغه .

« لا توجد جماعة بشريّة دون تأطير ، أي دون ضوابط ؛ وهذا يصحّ أيضاً

على المجموعة المكوّنة من 50 شخصاً مثلما يصحّ على الامبراطوريّات ؛ فلم يكن ضغط الضوابط في قبيلة أوسترالية أقل قوّة مما هو عليه في دولة أوروبيّة حديثة » (P. Gourou, 1982, P. 369) .

« في الواقع إن ما يجب أنْ يُرى وأن يُقال هو كيف يظهر البدائي ، المتوحّش ، أكثر تضايقاً في الطبيعة ، أكثر انزعاجاً من العادات التقليديّة ، أكثر ارتباطاً بالانقسامات والمفاهيم الشائعة من المتحضّر . فالبدائي ، المتوحش هو كائنٌ تقاليد وعادات قبل كل شيء » (L. Febvre, 1970, P. 179) .

ليس هناك تشابه كبير بين البيئة البشرية وبيئة الأجناس الحيوانيّة أو النباتيّة ، لأنّ الثقافة تتدخل بين الإنسان والوسط الطبيعي ، أي تتدخل الجماعة . كما تتدخل أيضاً بين طبيعته البيولوجيّة - مورّثاته - ونموّه ، الجماعةُ التي ستكيّف جسده ودماغه ، وتجعل استعمالهما متخصّصاً وفقاً للأعراف الجماعية المتوارثة . ففي نهاية المطاف ، الإنسان مشروط بوسطهِ الإنسانيّ - الثقافيّ - أكثر مما هو مشروط بالوسط الطبيعي - الجغرافيّ - أو بحقيبته التناسلية - الاستعدادات البيولوجيّة .

« . . . « الإنسان » ، الإنسان المُجرَّد ، الإنسان الجغرافيُّ الذي يتوجّب عليه ويمكنه بلا اكتراث أن يأكل كل شيء ، وأن ينتمي لكل شيء ، هذا الإنسان غير موجود (. . .) إذ أن الفكرة تنتصبُ في كل مكان بين « الإنسان » و« النتاج الطبيعي» . وهي فكرةٌ لا تكون منفعيّة في معظم الأحيان» (L. Febvre, 1970, P. 183) .

هذا الإنسان لا ينصاع للطبيعة، ولا يكتفي باحتلال مكانه في عشّ بيئي أو في مكان حيويّ (Biotope) ملائم يمكنه التكيّف معه بشدّة مثلما تفعل التجمّعات الحيوانيّة والنباتيّة المتوازنة (biocénoses) ، لتكوين نظام بيئي مستقرّ .

« عندما يتدخل الإنسان - أي الحضارة - ، يتلاشى مفهوم النظام البيئي . فالعلاقات بين الحضارة والطبيعة ليست علاقات استتباع وتوازن . ربما كانت كذلك في العصر الپاليوليتي الأدنى » (P. Gourou, 1980, P. 411)

« ليس الإنسان في الطبيعة ، إنّه في حضارته ؛ والحضارة الجامدة تصنعُ وهمَ التوافق التام مع الظروف الطبيعية » (Ibid, P. 408) .

إن هذا التوارث المتواصل للسمات الثقافية المكتسبة هو الذي يقيم الحواجز بين المجتمعات ويحافظ عليها . حواجز بين الحضارات الكبرى (وثانوياً بين متفرّعاتها ، الثقافات الوطنيّة) وكذلك بين الحضارات الإثنيّة ، غير أنّ هذه الإنسانيّة المجزّأة ثقافياً ليست جامدة ، وكذلك حال كل قسم منها . ويكمن الفرق ، كما هو الحال في كل بنية ، في القدرة على التحوّل وعلى معاناة مسار تفكك وانبناء ، أي القدرة على استيعاب الابتكارات . القدرة على الانتقال من مرحلة « المجتمعات الباردة » ، التقليدية ، إلى « المجتمعات الحارّة » ، المتحرّكة . وحتى في داخل هذه الأخيرة ، تظهر الانكماشاتُ ، الناجمة عن الاستعدادات الداخلية المتباينة .

« كلّما يكون مجتمعٌ « حارّاً » ، يكون أكثر تضمّناً للاضطرابات والحريّات معاً ، وبالتالي يتسامح أكثر مع ولادة وتكوين انحرافات جزئية (فرديّة أو جماعيّة) . يمكن أن تتحوّل هذه الانحرافات إلى نزعاتٍ مؤاتية للصراعات والنزاعات الاجتماعيّة ، التي تغدو ، على هذا النحو ، عمليّاً ، قواطعَ ومحرّكاتٍ للتبدُّل » (E. Morin, La nature et la société, Communication, N° 22, Seuil, 1974, P.14) .

ويعلّم التاريخ كله ، منذ أكثر من خمسة قرون ، أن الحضارة « الأكثر حرارة » هي الحضارة الأوروبية بلا شك . تلك التي فاقت الجميع في ابتكاراتها ، حتى من خلال تطويرها وتطبيقها لابتكارات الآخرين ؛ وتلك التي انعكست من خلال كل المحيطات على كل القارّات ؛ والتي شكّت بنفسها مثلما شكّت بكل الحضارات الأخرى ، وجعلت العالم يدخل في العصر الحديث ، العصر الحاسم والنّاقد . « ناقد وحاسم معاً : فهو عصر النّقد الذي وُلد فيه وتطوّر الشّك المنهجي والاستدلال العقلي ، بوصفهما مكوِّنين ضروريّين للفكر العلمي ؛ وهو بذلك « عصر حاسم » ، صعب تجاوزه ، لأن هذا الفكر الريبيّ وهذا « الفحص الحر » يعيدان النّظر تدريجيّاً في

المعتقدات ، في التقاليد والقيم الألفيّة . وفوق ذلك : إنَّ أمبرياليّته وغزواته تجعل الغرب على اتصال بشعوب أخرى وثقافات أخرى ، الغرب الذي سيبدأ برؤية هذه الشعوب وهذه الثقافات بأنها « غرد ة » ، إلى أن يُرغم على الاعتراف بشرعيّتها وفرادتها ، فيسعى إلى فهمها ؛ ومع عودته إلى ذاته ، سيرى نفسه مضطراً لإعادة النظر في تراكيبه الفكرية الخاصّة به » . (G. Michaud, 1981, P. 187) .

ويبقى السؤال الأكبر هو التالي : لماذا في القرن الخامس عشر ، السفن الأوروبيّة هي التي جابت بحار العالم ، وليست مراكب الأمبراطور مينغ التي وصلت إلى أوروبا ؟ أي شيطان دفع الأوروبيّين ، ولم يدفع الصينيّين أو الهنود ؟

« إننا منفصلون عن المجتمعات التقليديّة بما أسمّيه الثورة الحديثة ، وهي ثورة في القيم يبدو أنّها قامت في الغرب المسيحي على مدى أجيال . هذه الظاهرة تشكّل محور كل مقارنة بين الحضارات . ففي أغلب الأحيان ، كانت محاولة المقارنة ترتكز حتى الآن على الحالة الحديثة : لماذا لم تطوّر هذه الحضارةُ أو تلك من الحضارات الكبرى ، علم الطبيعة ، أو التقنولوجيا ، أو الرأسمالية التي عرفتها حضارتُنا ؟ لا بد من قلب السؤال : كيف ولماذا حدث هذا التطور الفريد الذي ندعوه حديثاً ؟ إن المهمة المركزية للمقارنة تكمن في الإحاطة بالنموذج الحديث إنطلاقاً من النموذج التقليدي » (Louis Dumont, 1977, P. 15) .

إن المجتمعات التقليديّة ، التي تمثّل الهند نموذجها الكامل ، هي في المقام الأول تراتبيّة ، بينما يؤكّد المجتمع الأوروبي نفسه ، منذ قرون ، كمجتمع مساواتي وفرديّ ، فالمجتمعات التقليديّة تعلن أولويّة المجتمع ، والمجتمع الأوروبي يعلن أولويّة عنصره التكويني ، الإنسان . والمجتمعات التقليديّة هي متحدّات ، قائمة على المنصب ، والأوروبي مجتمع قائم على العقد . والتقليدية تتوالد بقوة التراث ، والأوروبي يتجدّد بإعادة النّظر في التقاليد . المجتمعات التقليديّة تحتفي بالسلطة ، والمجتمع الأوروبي يحتفي بالحريّة الخلّاقة . من هنا التحرير للطاقة الرائعة ، طاقة الذّرة المجتمعية أي الفرد .

بعـدما فـرضت الحضارة الأوروبيّـة نفسها بقـوّة الامبرياليّـة على كـل القـارات وتراجعت سياسياً مـع تصفية الاستعمـار (التي بـدأت مـع الثـورة الأميركيّة ، انتشرت الحضارة الغربية ، من خلال المجتمع الصناعي ، انتشاراً حتمياً في العالم بأسره . وسرعان ما ارتسمت عدّة مؤشرات لحضارة كـوكبيّة تقوم على التوحيد التدريجي للعلامات وللرموز الأكثر تداولاً ، المأخوذة عن الغرب ،والتي شاع استعمالها وعمّ .ويبدو أن بعضها يفرض نفسه لأسباب واضحة على صعيد التناسب والتطبيع العالمي ، مثال ذلك نقاط الاستدلال المكانيّة ـ الزمانية (التقسيم الستيني للدقائق والثواني، اليوم من 24 ساعة، الإسبوع من 7 أيام، السنة 12 شهراً حولياً ، التقويم الغريغوري ، العصر العامّ ، النظام المتـري ، الخ) ، واللغـات الأساسيـة (الترقيم العشـري ، الأرقام الهنـدية « العـربية » الكتـابة من اليسـار إلى اليمين ، الأبجديـة اللاتينيّـة ، علامـات الكتابة ، الرموز الكيمائيّة ، لغات الحاسوب ، اعتماد الانكليزية في المطارات الخ) ؛ وفي موازاة ذلك ، توّحدت معايير النّقل أو الانتاج (قيادة على اليمين ، الفصل بين الطرقات ، قواعد الملاحة ، معايير الميكانيك ، الأمن ، الصحة ، الخ . وهناك أمور أخرى متعلّقة بالأزياء ، ناجمة عن صورة الغربي التي تبثّها وسائل الإعلام والإعلان ، لكنّها تُفيد بالطبـع الإنتاج الغـربي العام : أزيـاء الملابس (طقم ـ جاكيت ـ ربطة عنق ـ روب ، الخ) . أزياء غذائيّة (شوكة ـ ملعقة ، أطباق أوروبية ، أكل أميركي جاهز ، كحول ، وجبة الغذاء ، الخ) ، « رسوم » السيّارات ، الأجهزة الضروريّة ، الأثاث ، الخ ، وعلامات التهذيب واللياقة (قبضة اليد ، الخ) ، أزياء ترفيهيّة (رقصات ، ألعاب ، رياضات ، سياحة ، الخ) ، أزياء ثقافيّة (موسيقى ، أفلام ، تلفزيون ، منشـورات كبرى ، الـخ) ، كما أن بعض مزايا العادات والتقاليد القـادمة من الغـرب تطاول الحضـارات الأخرى : أسرة نووية أكثر ، الزواج بعقـد متبادل ، تحـرير المـرأة ، حريّـة جنسيّة ، طلاق ، استقلال مبكّر للشباب الخ . وهنـاك عدد من القيم ينتشـر بسرعة أقـل وبشكل غيـر منظور : الفـردية ، العلمـانية ، البحث عن الـربح الشخصيّ ، الخ . حتى أن الصورة الطبيعية لـلأوروبيّين يجري تقليـدها :

الدليل على ذلك المبالغ التي يجري إنفاقها على تصفيف الشّعر وصبغه (لدى

الزنوج) أو تغضين الشعر وتفتيح العيون (لدى الصُفر) ، وهي مبالغ أكبر من تلك التي ينفقها البيضُ على السُمرة أو تجعيد الشَعر .

صحيح أن هناك مقاومات واعية لهذا الشّيوع العالمي للتصرّفات الغربيّة ، تتجلّى هنا وهناك ، وتتجسّد في إجراءات وتدابير متنوّعة ، منها ما هو رمزي وما هو عملي ، مثل المحافظة على عادات الملابس الوطنيّة ، القديمة أو المستحدثة ، والأعياد القوميّة ، الخ ، والغرب ذاته يأخذ أو يستوعب عناصر آتية من الخارج ، مثل بعض الأزياء النسائيّة أو الأزياء الأفريقية أو اليابانية الغازية لأرصفة الطرقات ، والأقراط الجديرة بالزينة في سهرات الميلاد ، المستوردة من اليابان أو سنغافورة . هناك حضارة كوسموبوليتية ملفّقة ، قائمة على أشياء سُوقيّة وأساطير متلقزة ، يجري نشرُها في كل الجهات بواسطة الإنتاج الجماهيري .

يبقى أن نعرف ما إذا كان القرن الحادي والعشرون سيغدو ، في ما يتعدّى هذا الشيوع الثقافي وهذا الترويج الناجمين عن انتشار المجتمع الاستهلاكي ، وفي الوقت الذي سيكون فيه قرن الدخول في المجتمع ما بعد الصناعي ووقف النمو السكّاني ، قرنَ الحفاظ على الحضارات الأصيلة وتجدّدها في عالم تعدّدي .

إنَّ حضارةً وثقافةً لا تتجلّيان فقط من خلال منجزاتهما الماديّة ـ الصُّنعية ـ والروحيّة ـ قوانين ، ممارسات أخلاقيّة ، أساطير دينيّة ـ ، بل تتجلّيان أيضاً من خلال مشاريعهما وطوباويّاتهما ، وثقافاتهما المعاكسة، وثوراتهما الكبرى . فالحضارة تتميّز برؤساء دولها ومشترعيها ومفكّريها ، بقياصرتها وآلهتها ، بقدر ما تتميّز بثوّارها ومرتدّيها وثوّارها وأنبيائها الدجّالين . ففي مواجهة الرّوعة الساطعة ، الجليلة ، والمشرقة في الظاهر ، لحضارةٍ في ذروتها ، يكشفُ الانفجار المفاجيء ، والسطحي ربّما ، للرفض الجذري والانتفاضة الجماهيريّة ، عمّا كانت تخفيه أساساً من مظالم وآلام واستياء . هكذا ، تظهر هشاشةُ وفراغُ بعض المباني التي لا تكون سوى واجهة . وفي المقابل يبدو كبار الرائين ـ التقليديّين أو الهرطوقيّين ـ معبّرين جداً : إن هذيان الحكّام وجنون

عظمتهم المحافظ ينهاران أمام نبوءة ألفيّة قديمة تتوقع وقوع كوارث وحوادث جسيمة .

تلك هي فائدة انفجار 1968 في فرنسا، في تشيكوسلوفاكيا ، في أميركا ، الخ ، إذْ انكشفت من خلال ثغرة جرى إغلاقها بسرعة ، الأزمة العميقة للحضارة الصناعيّة . قال هربرت ماركوز في 23 آذار/ مارس 1979 : « من الغباء التحدث عن ثورة 1968 كأنها هزيمة » . وزايد فرناند بودي بقوله :

« لقد هزّت [انتفاضة الطلاّب سنة 1968 في فرنسا] المبنى الاجتماعي ، وحطّمت العادات والانقيادات وحتى أنها حطّمت تقاليد الطاعة العمياء ؛ فبعدها ، بقيت الأنسجة الاجتماعية والعائليّة ممزّقة بشكل كافٍ لقيام أنماط حياة جديدة ، على كل مستويات المجتمع . هنا تكمن بالذات الثورة الثقافية الأصيلة . فمنذ ذلك الحين صارت الرأسمالية المحتقرة في صميم المجتمع تجد نفسها في وضع أسوأ مما كانت عليه بالأمس ، إذْ لم يعد يهاجمها الاشتراكيّون والماركسيّون المتزمّتون وحسب ، بل صارت تهاجمها أيضاً جماعاتٌ جديدة ترفضُ السلطة بكل أشكالها : فلتسقط الدولة ! (. . .) . وكان برنامج ربيع براغ ـ اشتراكية في القمة ، حرية ، « عفويّة » في القاعدة ـ يقدّم نفسه كحلٍ مزدوج لواقعٍ مزدوج الاهتمام . لكن أية اشتراكية ستكون قادرة على صون الحريّات والتحرّكات في المصنع ؟ طالما أنَّ الحل المقترح سيعين استبدال رأسمالية احتكارية باحتكار الدولة ، وبوجه عام سيعين إضافة أخطاء الاحتكار الرأسمالي إلى أخطاء احتكار الدولة ، وعندها مَنْ يمكنه الاندهاش من كون حلول اليسار الكلاسيكية لا تثير حماس النّاخبين ؟ » (مقابلة ، لموند ، الأحد 18 نوفمبر 1979 ، ص XVII) .

في ضوء اختبار جيله ، يوضح لويس ديمون :

« ها نحن قد بدأنا بالرفض المهووس لكل تسامٍ ، وبتنا نطالب بالتلازم صراحةً . فلا شيء مميّز هنا . اللّهمّ إلاّ كثافة الظاهرة . وبالتالي يمكن من جهة أن نرى كل حركة ثقافتنا كأنها تقوم على مطلب من هذا النّوع . ويمكن

من جهة ثانية أن نرى أنها حركة تلعبُ فيها الشبيبةُ دوراً أساسياً ، جيلاً بعد جيل . وليس من الصعب إيجاد سوابق لحركة 1968 على صعيد السيرة الفردية . فهيجل الشاب ، وبعده بنصف قرن ، ماركس الشّاب عبّرا عن هذه الثورة ، عن الاعتقاد بأن التلازم المحض كان يحقّق الحريّة الحقّة ، وبشكل أعمّ، هناك بلا شك قاعدة عالمية لكل هذا : مثال ذلك التمكّن ، من الناحية هذه ، من التقريب بين ثلاثة أشخاص لعبوا بعد ذلك دوراً استثنائياً : القديس أوغسطين ، لوثر وماركس ، تمرّدوا كلهم في مرحلة أولى على الإرادة الأبويّة والقدر المرسوم في المجتمع (. . .) وللعودة إلى التجربة التي اكتسبها جيلي بعناء ، لا بد من الملاحظة بأن الظاهرتين الكبيرتين اللتين عشناهما بطريقة أو بأخرى ، النازيّة والشيوعيّة ، تندرجان كلتاهما في هذا الأفق للتلازم المنشود . لا ريب أنّهما تندرجان فيه بشكل مختلف ، ولكن هذا لا أهمية له هنا . فقد أظهر لنا التاريخ المعاش بشكل قاطع ، ودون إخفاء للرعب ، مدى جنون مطلبنا الأوليّ » (مقابلة ، النوفيل أوبسرفاتور ، كانون الثاني/ يناير 1984 ، ص 59) . والعبرة المستفادة هي : « بسيطة جداً : لا يمكن التخلّص من كل تسامٍ ، وليس هناك شيء يمكنه الارتكاز على ذاته بذاته . وبشكل خاص ، يقوم كل نظام بشري على نظام متعالٍ » (المصدر السابق) .

إن الجدليّة بين التلازم والتسامي هي في أساس تكوين الحضارات . وإن هذا هو ما ينبغي أن يحفظه في فكرهم كل أولئك الذين يحلمون أو يعملون على قيام نظام عالمي جديد ، ومستقبل حضاراتنا ، الخاصة . . أو الكوكبيّة ؛ وأنّ عليهم أن يجذوا ، حتى للقرن الحادي والعشرين ، أساطير تأسيسيّة وآفاقاً أخرويّة .

من هنا ، فإن الرّهان الأكيد للعقد الأخير من القرن العشرين هو بلا شك الانطلاق نحو برهان ساطع على الرابط الضروري بين التنمية الماديّة والحريّة الفرديّة ، بين الإبداع الفكري والتجديد التقني . قبل 1989 ، لم يكن ثمة أمل ممكن بظهور بيّنةٍ أفضل على أن أساس حضارةٍ ما وبقاءها وروعتها لا تتوقف على قوّة الدول ولا على عظمة زعمائها أو قوّة جيوشها ، بقدر ما تتوقّف على الإمكانات المتاحة أمام شعوبها لكي تتحمل مسؤولية تحسين مصيرها بنفسها .

فالمسائل التي لا تزال مطروحة هي مسائل الأساس الروحي الدائم لكل حضارة، وقيمة خصائصها التاريخية والثقافية في مواجهة التقنيّات الحديثة (ما بعد الصناعيّة ، أكثر مما هي « ما بعد الحديثة ») للانتاج والاستهلاك والحياة المدنية المهيمنة . كما تتوقف على طريقتها الخاصة في الحفاظ على طبيعة مهدّدة عالميّاً وكليّاً من جانب نفعيّة ماديّة ، مجنونة وقصيرة النظر . إن العالم الجغرافيّ ، المفتكر بعلاقة البشر بالعالم، وباختلاف بيئاتهم على وجه الأرض ، يمكنه أن يقدّم عناصر إجابة عن مثل هذه الأسئلة .

ببليوغرافيا

Baumann (H.) et Westermann (D.), Les peuples et les civilisations de l'Afrique, Paris, Payot, 1947.

Bernard (Jean), Le sang et l'histoire, Paris, Buchet-Chastel, 1983.

Braudel (Fernand), Civilisation matérielle, économie et capitalisme (XV[e]-XVIII[e] siècle), 3 vol., Paris, A. Colin, 1967-1979.

Clark (Grahame), World prehistory in new perspective,. Cambridge, CUP, 3[e] éd. illustrée, 1977.

Dumont (Louis), Homo hierarchicus. Le système des castes et ses implications, Paris, Gallimard NRF, 1967.

— Homo aequalis. Genèse et épanouissement de l'idéologie économique, Paris, Gallimard NRF, 1977.

Febvre (Lucien), La Terre et l'évolution humaine, vol. IV, Paris, Albin Michel, coll. « L'Evolution de l'Humanité », rééd. 1970.

Gourou (Pierre), Terres de Bonne Espérance. Le monde tropical, Paris, Plon, coll. « Terre humaine », 1982.

Hours (Francis), Les civilisations du paléolithique, Paris, PUF, coll. « Que sais-je ? », n° 2057, 1982.

Michaud (Guy) et Marc (Edmond), Vers une science des civilisations, Paris, Ed. Complexe, 1981.

Pontalis (J.-B.), éd., Le Temps de la Réflexion, revue annuelle, n° 3, Paris, Gallimard, 1983.

Reclus (Elisée), L'Homme et la Terre, 6 vol., Paris, Librairie Universelle, 1905.

Spengler (Oswald), Le déclin de l'Occident, 2 vol., Paris, Gallimard NRF, 1948-1950.

— L'Homme et la technique, Paris, Gallimard NRF, 1958.

Toynbee (Arnold), A study of history, 12 vol., Oxford, OUP, 1934-1961.

— L'Histoire, un essai d'interprétation, abrégé par D. C. Somervell des vol. I à VI de A study of history, Paris, Gallimard, coll. « Bibliothèque des Idées », 1951.

— Le changement et la tradition, le défi de notre temps, Paris, Payot, 1969.

— L'Histoire. Les grands mouvements de l'histoire à travers le temps, les civilisations, les religions, Bruxelles, Elsevier Sequoia, 1975.

— La grande aventure de l'humanité, Bruxelles, Elsevier Sequoia, 1977.

Vallois (Henri), Les races humaines, Paris, PUF, coll. « Que sais-je ? », n° 146, 1967.

Vernant (J.-P.), Mythe et société en Grèce ancienne, et Gernet (Jacques), L'évolution des idées en Chine et en Grèce, Paris, Maspero, 1981.

فهرس الرسوم والأشكال

فهرست

الباب الثاني
المدارات الحضارية الحالية الكبرى

منشورات عويدات 969 / 1993



- جغرافيا الحضارات / رولان بريتون
- الحضارة العربية / جاك ريسلر
- الحضارة الأميركية / جان بيار فيشو
- الله والعلم / جان غيتون
- هكذا يعيش بيننا سكان الكواكب الأخرى / جان بيار بوتي
- انتفاضة العقل العربي / د . محمد عبد الرحمن مرحبا
- الفلسفة قبل اليونان / د . محمد عبد الرحمن مرحبا
- ماذا بقي من الفلسفة العربية ؟ / د . خليل أحمد خليل

ROLAND J.-L. BRETON
Docteur ès Lettres (Géographie)
Agrégé d'Histoire
Professeur à l'Université de Paris VIII
(Vincennes à Saint-Denis)

Géographie des civilisations

Traduction arabe
de
Dr. Khalil A. Khalil

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth- Paris

جغرافيا الحضارات

الكتاب ، أيُّ كتاب، مهما تناهى بين دفّتين ، وحاول واضعُه أنْ يُجدّده في الزمان وفي الحجم وفي مدى المعلومات ، يظلُّ يطرح نفسه كمسالة بحاجة إلى تدقيق . وليس من قبيل المصادفة أن يبدأ علم المعرفة من سؤال أساسي: كيف نقرأ كتاباً؟ أي بأية عينٍ نقراه؟ أبعين الصديق الذي يصدّق كل ما جاء فيه؟ أم بعين العدو الذي يحتاط ويتحفّظ وينتقد؟ لا شك أنَّ وراء كل كتاب عقلا يحاور عقولاً . لكنّه يبدو عقلاً صامتاً ، مكتوباً . وكتاب «جغرافيا الحضارات» يطمح واضعه لأن يكون أبجدية حضارات ، وبالتالي لابد من تفكيك الأبجدية حرفاً حرفاً، ومن تطوير موضوعاته موضوعةً موضوعةً ؛ وهنا ننتقل إلى أطلس حضاري كبير لا تعود قراءته ممكنة دون استناد إلى تاريخ حضاري إنساني مفصّل.

والحال ، فإن هذا الكتاب الذي تصدره منشورات عويدات في سلسلة عام 2000 هو مفتاح سلسلةٍ تطمح إلى تناول الحضارات الكبرى في العالم، وفي مقدّمتها الحضارة العربية. فماذا عن هذا الكتاب – المفتاح؟